المغمور من أديان الشرق الأوسط

في التقاليد الروحية لأقليات أهل الحق والمندائيين واليزيديين

الكتاب : المغمور من أديان الشرق الأوسط

المؤلف : أ.د. محمد الدعمي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٧٦١٧

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 186 - 4

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل

أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت

إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر



المغمور من أديان الشرق الأوسط

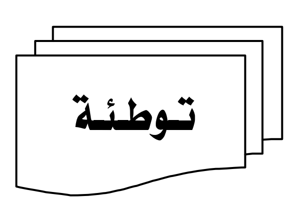
في التقاليد الروحية لأقليات أهل الحق والمندائيين واليزيديين

أ.د. محمد الدعمي

إهـداء

إلى لقاء الورد ، ابنـة الرافدين

محتوى الكتاب



لم يكن غرضي من تأليف هذه الدراسة مجرد التعريف بثلاثة من أديان الأقليات الثانوية المغمورة الموجودة في إقليم الشرق الأوسط بشيء من التفصيل، بقدر ما كان هذا جزءًا من جهد لإلقاء الضوء على بقايا راسبة من أنظمة دينية وعبادات غائرة في القِدم؛ بل ومنسية نسبيًا؛ كانت قد اعتنقتها أقوام وسلالاتٌ لم تترك الكثير من الشواخص للأجيال التالية سوى بقايا من معتقدات روحية وطقوس لم تزل حيَّة اليوم، ليس كأجزاء من الأديان الأصلية كما كانت معتنقة في قديم الأزمنة، ولكن كأجزاء ضُمت لعدد من الأديان "التوفيقية" أو التركيبية syncretistic religions من النوع الذي سيتم بحثه عبر الفصول القادمة.

أما فيما إذا كانت هذه الأديان التي تعتنقها أقليات صغيرة عدديًا، ذات دلالة ما بالنسبة للقارئ المعاصر، فان الأمر يبقى مرتهنًا بكيفية مباشرته هذه الأديان ودوافع تعمقه في تفحص جوانبها المتنوعة، تلك الجوانب التي تتموضع في قلب هذا العمل وتستحث المزيد من البحث والاستقصاء، ليس بهدف الوصف المجرَّد فقط، ولكن كذلك بهدف إلقاء الضوء على دلالاتها بالنسبة لقضايا

اجتماعية وسياسية معاصرة ترتبط بأزمات الشرق الأوسط الذي، للأسف، يغرقه العنف الطائفي والضغائن الدينية، حارمة شعوبه من إيجاد موطئ قدم لها في مسيرة ركب التقدم إلى أمام على نحوٍ موازٍ للتقدم الذي تحرزه شعوب العالم الأخرى. تبدو الصراعات الداخلية في هذا الإقليم الملتهب؛ خاصة الدينية والطائفية منها؛ كأنها تتناسل وتتوالد على نحو تسلسلي وتراكمي بلا نهاية منظورة، عاكسة عبر تفاعلاتها وآثارها المأساوية نمطًا توسعيًا من النمو والتشعب المضطرد عبر الإقليم اليوم.

وليس بأقل أهمية مما ذُكر في أعلاه، تبرز ملاحظة: كيف تتفاعل العواطف الدينية والطائفية وتتصاعد حتى تنقلب إلى ضغائن ومشاعر كراهية تصبُّ في بناء الجدران العازلة التي تبقى حابسة أغلب شعوب الشرق الأوسط في زنزانة "حلم الأسلاف" الرجوعي المتوثب إلى العصر الوسيط، وهي حال فكرية واجتماعية معقدة توصد كافة أبواب ونوافذ التحرر نحو آفاق مستقبل مشرق يعد بالسلام.

لا يتشبث هذا الجهد بتغطية جميع التقاليد الدينية للأقليات على مدى هذا الإقليم المترامي الجميل والمتداخل التفاصيل، فهو إقليم عصي على الاحتواء لأنه "إقليم المفارقات"؛ كما أفضِّل أن أطلق عليه على نحو متكرر، بلا تعسف. والحق أقول، فإن هذه الأديان لا تزيد عن جوانب ومكونات من تعقيد شائك أوسع، تعقيد قوامه أنواع الأقليات الإثنية والدينية التي تشكِّل - مع الأغلبيات وتقسيماتها

الفرعية الثانوية - البِنى الاجتماعية لشعوب الشرق الأوسط. ولكن في دواخل هذا الفسيفساء المربك، تميز هذه الأقليات الدينية نفسها عن سواها من الأقليات عبر عنايتها باستقلال شخصياتها وحرصها على المحافظة على مسافات فاصلة بينها وبين الأغلبية، من ناحية، وبينها وبين سواها من الأقليات، من الناحية الأخرى. هي أقليات حريصة، كذلك، على حفظ مسافة فاصلة بينها وبين الأقليات التي غالبًا ما تنمو تفرعات أو تبرعمات من التقاليد الروحية الرئيسة التي غالبًا ما تقرن بالشرق الأوسط، باعتباره إقليم ظهورها إلى الوجود، كاليهودية والمسيحية والإسلام.

إن التعقيد الديموغرافي لأديان الأقليات إنما هو في الغالب، نتاج تفاعلات وتتابعات لا متناهية، أشبه ما تكون بالصندوق الصيني، المتشكل من طبقات تميط اللثام عن طبقات أخرى من الجماعات الدينية، بضمن تشعباتها من الطوائف والعبادات والمعتقدات الروحية الأخرى.

إن المعيار الأساس الذي اعتمدتُه لانتقاء ديانات أهل الحق والمندائية واليزيدية إنما هو - بغض النظر عن احتوائها على عناصر تعود إلى الديانات الرئيسة المشار إليها أعلاه - أنها أديان لا تقبل التصنيف في سلال عامة رئيسة كسلال اليهودية والمسيحية والإسلام، فالأخيرة هي أديان يحسم الباحثون تصنيفها في سلة "السامية" و "التوحيدية"، على نحو غائم ومغرق بالتعميمية. هنا لا نتعامل مع طوائف ولا مع تشعبات منبعثة من الديانات الرئيسة لأن

ما يعقد موضوع التصنيف إنما ينبعث من الافتراض الأساس الذي يفيد بأنها ديانات تركيبية الطبيعة، بمعنى أنها تجمع عناصر من مختلف الديانات التاريخية القديمة، الأمر الذي يفاقم من صعوبة حل معضلة الأصول والتصنيف.

بينما تتماهى أديان الأغلبيات السُكَّانية من خلال إحالة عقيدة التوحيد إليها، حكرًا، فإن أهل الحق والمندائيين واليزيديين إنما يتشبثون بذات العقيدة، ولكن من منظورات أخرى، منها منظورات قد تبدو لـ"الآخرين" مقلوبة رأسًا على عقب، منظورات تتطلب المباشرة من زاوية أخرى، زاوية تتناغم مع رؤى مختلفة وفلسفات كونية قد لا تتواءم مع ما غُرس في دواخلنا وما نتمسك به، توارثًا، بوصفه التقليد المقبول.

إذا ما شاء المرء أن يدرك أبعاد ديانات الأقليات التي نبحثها في الصفحات القادمة، يغدو من الضروري عليه أن يحرِّر نفسه من الأفكار المسبقة ومما عُبئ به من المفاهيم والتحاملات المتنوعة عبر محاولة تحرير الذات لتهيئة موقف فكري مُنقًّى من المفاهيم المسبقة والعدائية، وخالٍ من التطرف أو الغلو.

إن بقاء الأديان الثلاثة بداخل بيئة مناقضة كتلك التي تلف إقليم تركبه الصراعات الطائفية، إنما يلقي الضوء على أسباب التواصل والاستمرارية التي أتاحت لمثل هذه الأقليات تطوير أنماط سلوكية جمعية معينة تصب في تجنب الاضطهاد والاندثار والتذويب في آنية جماعات دينية أوسع.

لذا فإنه من المهم أن نبحث مثل هذه الأنماط السلوكية الجمعية التي طوَّرها المؤمنون بهذه الأديان الثلاثة عبر العصور، مع إشارة خاصة إلى الأدوار الاجتماعية والسياسية التي يمكن أن يضطلعوا بها للتعريف بمكانتهم الاجتماعية وإمكانياتهم بضمن مهاد مجتمعي أوسع.

إن جهدًا من هذا النوع لا يمكن أن يخلو من الجدوى لأنه يخدم في إلقاء الضوء على "الجانب الآخر" من الشرق الأوسط في سبيل تجسيده لعموم العالم وللمهتمين خاصة، فهو الجانب المعتم الذي لم يمط عنه اللثام بالكامل حتى اللحظة بسبب عدم منحه ما يستحق من اهتمام بدواعي غير مقنعة قد تكمن في طيات الأفكار المسبقة والتنميطات الخاطئة التي استزرعها في دواخلنا "حُرَّاس الأديان" الكبرى عبر الإقليم بواسطة أنظمتنا التربوية وثقافتنا الشائعة. ثمة إرادة واضحة المعالم ما فتئت ترمي إلى تجنب هذه الأديان والابتعاد عن رصدها وبحثها، وكأنها حقول ألغام لا ينبغي أن تطأها أقدام المهتمين.

لا يمكن للفصول التالية أن تدَّعي الإلمام بكل ما يتعلق بهذه التقاليد الروحية، فهذا ليس من مهمات الكتاب النهائية، خاصة وأن هناك من العقائد والطقوس والمسلمات التي ستتم الإشارة إليها دون مناقشتها على نحو كامل بسبب ما يشوبها مما هو غير قابل للشرح أو للعقلنة أو للإدراك المنطقي المبسط، وهي حال تنطبق على جميع التقاليد الروحية في العالم بلا استثناء. وللمرء أن يلاحظ أننا

قد عمدنا إلى ترك بعض العناصر والمُسلَّمات لهذه الأديان غامضة كي لا نحرم القارئ من فوائد "صدمة الوعي" المرجوة من كل بحث مجد. ثمة حاجة ضاغطة لحث القارئ إلى المزيد من البحث والاستزادة والإغناء، فهذا هو ما نتوخى تحقيقه في نهاية المطاف. هنا تكمن جاذبية الموضوع، خاصة وأنه يعرض مسلمات القارئ ومفاهيمه المسبقة لتيار ثقافي "جديد"، تيار مستفز نسبيًا، لم يألفه من ذي قبل، تيار مستل من الزوايا البعيدة وغير المكتشفة للشرق الأوسط. هكذا يتحقق الإدراك، أي من محاولة القارئ، المثقل بالمفاهيم المسبقة والمنمطة التحرر منها عبر اضطلاعه بواحدة من أذكى أنشطة العقل الآدمي، ألا وهي أنشطة المقارنات والمقاربات: فعندما يتتبع القارئ متوازيات معينة ويقارن أفكارًا ومعتقدات بأخرى كانت تبدو له، طوال حياته، وكأنها الحال الطبيعية أو الصحيحة، فإنه لابد أن يعمد إلى إلقاء الضوء على حاجة الإنسان للدين وميله للعبادة، زد على ذلك ملاحظته ومساءلته ما يجري في العالم الغربي حيث يظهر أدعياء نبوة ومبشرين بأنظمة روحية جديدة يطفون على بشرة الحضارة الغربية من آنٍ لآخر عكسًا لمرض داخلي يعتمل في أعماق تلك الحضارة، مرض لم تزل أسبابه ترد إلى تراجع الحياة الروحية وإلى الحاجة الدائمة لأساس صلب للتيقن.

لأن هذه "الأديان الأخرى" التي نناقشها فيما يلى من الفصول القصيرة تبدو غير شائعة أو معروفة للقارئ العربي، فقد اضطررنا لإستعارة ألفاظ من لغاتها الأصلية، الأمر الذي قاد إلى الحاجة لتقديمها وشرحها للقارئ على نحو مبسط لمساعدته على فقه معانيها.

في هذا السياق لا بد لي من تقديم تعابير الشكر والعرفان لزوجتي الفاضلة، السيدة (لقاء صاحب الورد) التي كانت خير سند ومشجع لي منذ شببت حتى شبت. ولا مناص من أن أشكر عددًا من الأصدقاء المندائيين واليارسانيين واليزيديين الذين لم يترددوا في تقديم العون والمشورة لي على سبيل خدمة الحقيقة بقدر ما أمكن.



الشرق الأوسط : إقليم الثروات والمفارقات الدينية

تنبع أهمية الشرق الأوسط من أنه يمنع الشرق الأقصى والشرق الأدنى من التجاوز على بعضهما.

(دان كويل)

بين ثُلث ونصف الأنباء الأجنبية في المطبوع والمبثوث الإعلامي الغربي عادة ما يكون حول الشرق الأوسط.

(غوين داير)

• • • • •

(أ)

بقي الشرق الأوسط عبر القرن الزائل وسنوات القرن الجاري المبكرة إقليمًا إشكاليًا ومصدرًا للمشاكل بقدر تعلق الأمر ببقية أجزاء العالم: فهل يمكن أن ترد هذه الحال إلى ثرواته الطبيعية الكبيرة التي أشغلت العالم الصناعي وأرَّقت حكوماته لعقود؟.. أم أن الأمر يمكن أن يرد أساسا إلى موقعه الإستراتيجي، الكائن في قلب خارطة العالم على نحو التحديد؟.

قد يكون هذا استفهاما عصيًّا على الإجابة الدقيقة، خاصة عندما يتداخل العاملان أعلاه مع بعضهما. من ناحية أولى، بقيت الموارد الطبيعية المبطونة في أراضي دول الإقليم الفتية تتواشج مع مخزونات النفط والغاز العملاقة؛ المادتان الحيويتان الضروريتان لجميع الأنشطة الاقتصادية بلا استثناء. بيد أن على المرء أن يتأنى ليتذكر أن الموارد الطبيعية إنما هي اكتشاف متأخر نسبيًا بحسابات التاريخ الأوسع، لأنها لا يمكن أن تتجاوز ما قبل العقود العشرة الأولى للقرن العشرين.

لم يكن النفط عمليًا ذا قيمة قبل أن تضطلع الشركات الأوربية باستكشاف مخزوناته. بقي النفط الخام ينبعث من باطن الأرض إلى سطحها على نحو طبيعي، بينما جعل سُكَّان كركوك في العراق، على سبيل المثال، يستعملون هذا السائل الأسود الكثيف المنبعث من البواطن علاجًا لأمراض الجلد عند الحيوان، أو لمجرد إحراقه، الأمر الذي كان يؤدي إلى تلويث البيئة على نحوٍ لا مبالٍ، منطوٍ على سذاجة. لقد شاعت هذه الاستعمالات البدائية للنفظ الخام عبر الإقليم برمته، فليس فيه من يدَّعي أنه كان أكثر معرفة أو حكمة في استعماله. إنها لمن المفارقات الطريفة أن سُكَّان الدول الغنية بالنفط اليوم بقوا يجهلون أهمية هذا السائل الكثيف "الغامض" القابل للاشتعال بل ويجهلون حتى قيمة الأرض التي تبطتن مخزوناته الأسطورية، غير واعين بأنه كان "ذهبًا"، ولكنه ذهب ذو لون أسود.

على أعتاب القرن العشرين، كانت دول مهمة اليوم؛ كالعراق والمملكة العربية السعودية وإيران ودول الخليج العربي؛ ذات أهمية أدنى مما هي عليه اليوم بالنسبة لبريطانيا وفرنسا وألمانيا ما بعد بسمارك. هذه الأهمية الضئيلة هي التي كمنت خلف الرسم الاعتباطي للحدود البينية بين دول الإقليم، ذلك الرسم الذي تمَّ بعد الحرب العالمية الأولى، بلا ما يشير إلى توقع واضح المعالم بثمة ثروات معدنية وفيرة، ممكنة الاستغلال، تكمن في أراضي هذه الدول. إذا ما أجرى المرء مسحًا عينيًا مبسطًا لخارطة الشرق الأوسط اليوم، فإنه لابد أن يطور انطباعًا يفيد بأن الراحلين، "سايكس" Sykes و"بيكو" Picot اللذين رسما خطوط الحدود بين هذه الدول الفتية الواقعة في قلب الشرق الأوسط لم يكونا بحاجة لأكثر من "مسطرة" مجردة لرسم هذه الحدود تأسيسًا على اعتبارات مصلحتي بريطانيا وفرنسا آنذاك، بضمن سياق كولونيالي تنافسي أوربي، وحسب معطيات تفوقهما حقبة ذاك، بغض النظر عن تطلعات وآمال الشعوب التي تقطن الإقليم.

ومن ناحية ثانية، لعبت مركزية الشرق الأوسط الجغرافية بين الشرق والغرب، كبؤرة التقاء خطوط المواصلات العالمية، دورًا مهمًا كذلك بقدر تعلق الأمر بذات التنافسات الكولونيالية والاستحواذية بين الإمبراطوريات الأوربية، ومنها، زيادة على بريطانيا وفرنسا، البرتغال وإسبانيا وإيطاليا. في هذه الحقبة، تبلورت أهمية الشرق الأوسط في موقعه المركزي بين أوربا وبين

مستعمراتها عبر الشرق الأقصى وأفريقيا. ولا يقل عن أهمية الموقع الوسطي للإقليم بالنسبة للندن وباريس خاصة، هي تلك الممرات المائية الإستراتيجية نحو الشرق الأقصى ونحو شبه القارة الهندية التي بقيت ردحًا طويلاً من الزمن "ماسة التاج" البريطاني، ناهيك عن حقيقة أن امتدادات الشرق الأوسط الغربية عبر شمال أفريقيا إنما كانت تشكِّل معبر فرنسا لأفريقيا ولمجاهل الأقاليم الشاسعة جنوبي الصحراء الكبرى، عشق باريس التاريخي.

كمنت هذه الأهمية الإستراتيجية لموقع الشرق الأوسط وراء إطلاق الجنرال نابليون بونابرت حملته التاريخية الشهيرة على مصر، مدشنًا مرحلة تنافس كولونيالي جديدة قادت إلى تغييرات كبيرة عبر الإقليم بإطلاق تحولات اجتماعية تسلسلية عمادها التفاعلات السببية التي غمرت بمعطياتها الشجاعة الإقليم بأسره فيما بعد، زيادة على ما تبع ذلك من حروب ومن اشتداد التنافس بين بريطانيا وفرنسا لبسط هيمنتهما على الممرات المائية الإستراتيجية. انطلقت آمال الجنرال الفرنسي من خطة قطع الطريق على بريطانيا في سبيل إعاقة الوصول إلى أثمن "ممتلكاتها"، الهند، ناهيك عن خطة بونابرت لوضع حدّ لنجاحات بريطانيا الكولونيالية عن طريق بسط الهيمنة الفرنسية على مصر بهدف إرباك الاندفاع البريطاني نحو "وليمة الاستعمار" التي لفتت انتباه الدول الكبرى فيما بعد، خاصة بعدما ركزت طاقاتها للسيطرة على قناة السويس وسواها من الممرات المائية الطبيعية، إذ اكتشف العقل

النفعي البريطاني المعروف ببُعد النظر الأهمية القصوى والحاسمة لبسط هيمنته على مضيقي عدن وهرمز، إضافة إلى ضرورات إيجاد موطئ قدم على مفاصل المسارات الدولية الإستراتيجية ومحطاتها النهائية، كما كانت عليه الحال في اهتمامها بالبصرة المطلة على رأس الخليج العربي بالقرب من نقطة التقاء الرافدين، دجلة والفرات، جنوبي نقطة "القرنة" لتكوين شط العرب، وهو الآخر من أهم الممرات المائية. شكَّل النهران العظيمان أعلاه طريقًا مائية إضافية تمتد من دواخل هضبة الأناضول إلى الخليج العربي، ثم إلى مسقط، ومن هذه المدينة المهمة، إلى رأس الرجاء الصالح من ناحية وإلى جُزر جنوب المحيط الهادي حيث كانت فرنسا تحقِّق تفوقًا ملموسًا تبتز به سواها من الدول الأوربية على نحو سريع حقبة ذاك.

تصاعدت التنافسات الكولونيالية الغربية حتى بلغت ذروتها في الحرب العالمية الأولى بسبب تشبث ألمانيا الموحدة بدخول السباق الكولونيالي، ملتحقة بالركب البريطاني/الفرنسي القديم المندفع نحو التوسع، إمَّا بالضم وإمَّا بفرض سلطات الانتداب. وهكذا راحت ألمانيا الموحدة الجديدة، وعلى نحو معاكس لرؤى موحِّدها المستشار أوتو فون بسمارك (١٨٠٥ـ١٨٩٨)، تميط اللثام عن حلم إمبراطوري عبر الإعلان عن خطة مشروع مواصلات عملاق، عُرِف بمشروع (ب/ب) (B/B)، لربط برلين ببغداد بواسطة خط سكك حديد عملاق، وهو الأمر الذي أثار حفيظة بريطانيا من

ناحية، وتسبب بتوتر العلاقات مع فرنسا، من ناحية ثانية، حيث كرَّس ذلك سعي باريس ولندن لتشديد قبضتهما على ما سبق وإن فرضتا عليه الهيمنة من بين البقاع المترامية في الشرق الأوسط وفي سواه، خاصة وأن خط حديد بغداد برلين بدا قابلاً للاستطالة حتى البصرة على رأس الخليج العربي، منوهًا إلى مطامح ألمانية لا محدودة.

بدأت تعابير هذه التنافسات الأوربية حتى قبل انهيار الأمبراطورية العثمانية (الرجل المريض) وما تلاه من تقطيع لأوصالها، إذ دخلت القوى الأوربية العظمى جميعًا في حرب خفية من أجل النفوذ عبر أقاليم أو ولايات الإمبراطورية العثمانية بواسطة الأذرع الدبلوماسية والأنشطة التجارية، زيادة على توظيف التجسس الذي تركز بث العيون في المراكز الحضرية الرئيسة مثل بغداد وبيروت والبصرة ودمشق والموصل وحلب، زيادة على مدن آسيا الصغرى. لقد ترك التجسس وما تخلله من شراء ذمم واستمالة للسُكَّان المحليين بصمته على طبيعة هذه الحرب الأوربية ـ الأوربية الخفية، فساعدت عليه جهود الرعايا الأوربيين الذين وضعوا أقنعة التُجَّار والمبشرين والدبلوماسيين والمنقبين الآثاريين، من بين سواها من الأقنعة على سبيل المرور دون ملاحظة السلطات العثمانية والسُكَّان المحليين.

ربما تكون الحرب العالمية الأولى هي التي دشنت "عصر النفط" من الناحية العملية، فطفت أخبار هذه المادة الحيوية الحديثة

الاكتشاف كمصدر للطاقة، لأول مرة في التاريخ، برغم عدم اكتشاف كامل إمكانياتها وآفاقها الصناعية، باستثناء ملاحظة حكومات أوربا أن النفط يمكن أن يحلَّ محل الفحم الطبيعي مصدرًا للطاقة، خاصة بالنسبة للمتنافسين التاليين في الحرب العالمية الثانية التي اندلعت بعد سنوات توتر مشحونة بالتنافسات والتكتلات والأحلاف. لقد تأكد مذاك، كما هي عليه الحال اليوم، أن من يهيمن على النفط هو من سيتفوق.

لقد كان المدخل الأوربي النفعي للشرق الأوسط بدرجة من التعامي، أنه تجاوز جوانب أخرى لأهمية هذا الإقليم المتنوع والمترامي. وقد بانت هناك العديد من المؤشرات التي وجب استذكارها بقدر تعلق الأمر بتقييم وفك شفرة رموز اهتمامات أوربا بالإقليم. للمرء أن يلاحظ أن مثل هذه الرموز قد تباينت وتنوعت بعد تفكك الإمبراطورية العثمانية بعدما كانت أكبر قوة إقليمية.

وللمرء، بضمن سياق هذه المناقشة، الارتجاع إلى الإرهاصات التي اعتملت في دواخل الجنرال الفرنسي نابليون بونابرت، تلك الإرهاصات التي تجلَّتْ في خطابه الشهير لجنوده بالقُرب من أهرامات الجيزة قبل اقتحام القاهرة، مذكِّرًا الجُند بأن قرونًا من التاريخ ترقبهم في هذه المعركة التاريخية. زد على ذلك سلوكه الغريب، عندما التحق بإحدى حلقات المتصوفة في القاهرة، إضافة على اعتداده الشخصي بذاته، ذلك الاعتداد الذي تجسَّد باستخدامه الجنسي لـ"فاطمة"، وهي شابة مصرية، في جهد كان يرنو إلى

"ترميز" هيمنته على مصر، عبر إمتلاكه جسدها الغض. يجسد الباحث "إريك ماير" Eric Meyer هذا النزوع النفسي الترويحي باستخدام توازٍ يفيد بـ" إذا ما اعتبرناها جملة فوق نحوية، فان سر البنية المنطقية التي اعتمدها الاستشراق الرومانسي آنذاك يمكن أن تختزل في بنية كتاب هيغل (فلسفة التاريخ)، حيث يهزم الغرب، فاعلاً، الشرق، مفعولاً به، في الصراع العالمي على الهيمنة التاريخية" [١]. لقد باشر الغرب الذكوري الشرق، بضمن ثرواته وأقوامه وتراثه، كيانًا مؤنثًا سكونيًا ملفوفًا بالحجاب.[٢]

إنه لمن المهم في هذا السياق ملاحظة أن المسائل الروحية ترادف الأنوثة في دواخل اللاوعي الغربي. من هنا نبعت الحاجة النمطية الجمعية التي عكسها الشعراء والكتّاب الخياليون الغربيون في حنينهم للعودة إلى "رحم" [٣] الحضارة، كناية عن ماضي الإقليم، على سبيل مزج "أنصاف الأفكار" الغربية بأنصاف "الأفكار الشرقية" لاستيلاد "الإنسان الألفي الجديد"[٤].

لقد تبلور هذا النمط الغربي النفسي الغربي في الحنين إلى الماضي، ذلك الحنين المفعم بالروحانيات وبالماديات في فكرة دفء الشرق الأوسط. لذا شهدت أراضيه الظهور المفاجئ للعديد من الرحَّالة، منهم المفكرون الروَّاد الذين توجهوا صوب بلداننا مدفوعين بقوة بحثٍ مضنٍ عن التيقن وعن الذات، هذا هو نفس البحث الذي قاد بعضهم إلى خلاء البوادي العربية؛ هذه البوادي التي خلبت عقول المرتحلين الكبار من أمثال تشارلس دوتي

Doughty وأوستن ليارد Layard ووليام هوغارث Hogarth وجيرترود بيل Bell وولفريد ثسجر Thesiger وكيفن يانغ Young وفريّا ستارك Stark، من بين آخرين ممن أدَّوا دراما الذات المغتربة والمضطربة عبر استشراق الارتحال على مسرح الشرق الأوسط النقي والبعيد عن قساوة عالم الماكنة والصناعة.

(ب)

رادف الشرق الأوسط في الثقافتين المحلية والعالمية[٥] ما يُسمى بـ"التقليد الديني اليهودي/المسيحي" ردحًا طويلاً من الزمن. وقد تعزَّز هذا الترادف بإضافة الاسلام، خاصة بعد الاندفاع الكولونيالي الأوربي نحو آسيا وأفريقيا في القرنين التاسع عشر والعشرين، إذ ربط الإسلام بذات التقليد التوحيدي أعلاه فعُدَّ امتدادًا له بسبب التشابه بينه وبين تلك الأديان التي أحيلت أصولها جميعًا إلى الأقوام السامية. لذا شعر الباحثان هولت PM Holt ولويس B. Lewis بامكانية دمج الإسلام بهذا التقليد لتشكيل ثالوث ديني شامل تتآصر فروعه بعقيدة الإيمان بتوحيد الرب وبالانتساب للعنصر السامي. هذا هو ما أجاز توظيف تعبير "التقليد الديني اليهودي/ المسيحي/ الإسلامي" في الدراسات الدينية والاستشراقية. وبدمج الإسلام، الذي بقي إشكالاً غربيًا مستديمًا لقرون منذ العصر الوسيط حتى اليوم[٦]. بهذا التقليد الخاص بالأقوام السامية، تكبَّل المفهوم الغربي للشرق الأوسط بهذا المنظور المرتكن إلى تقليد ديني، باعتباره مهدًا وموطنًا للأقوام السامية التي يتواشج تاريخها بتكون هذه الأديان وانتشارها. وقد تبلور هذا الوعي شبه الهاجسي "بسامية" شعوب الإقليم في أدب الرحلات المبكر، أي في الحقبة الذهبية لشيوع أسطورة الجنس الآري في أوربا. لقد سطَّر أحد عمالقته المبكرين، المستشرق تشارلس دوتي، المذكور أعلاه، هذه الفكرة

في رسالة شخصية لأحد مجايليه من المستشرقين على نحو لا يقبل اللبس، إذ كتب يقول:

" لم أتوخ من وراء تأليفي مجلدات "الصحراء العربية" عرض جولاتي بين ظهراني شعب سام ذي أهمية أنجيلية، بقدر ما توخيت هدف استئناف الجهد المثالي لتقليد الشاعرين تشوس وسبنسر". (٧)

وتناغمًا مع قرن هذا الإقليم بذات التقليد الديني للأقوام السامية، عبّر لسان حال حركة أوكسفورد The Oxford Movement، الكاردينال نيومان Newman (١٨٠١ - ١٨٩٠) عن ذات التآصر بقوله أن " القدس هي منبع المعرفة الدينية، بالضبط كما أن أثينا هي منبع المعرفة العلمانية" (٨) بضمن سياق أطروحته المهمة التي تصبُّ في خلاصة أن علم اللاهوت يسمو على جميع العلوم والأنظمة المعرفية الأخرى، في تفاصيل مشروعه لتأسيس جامعة كاثوليكية في شمال إيرلندا، ذلك المشروع الذي وضع نيومان فلسفته التربوية في كتابه الفذ (فكرة الجامعة - The Idea of a University).

حيال هذا المفهوم الغربي القديم المرتكن إلى قرن الشرق الأوسط بأديان الأقوام السامية التي أشرنا إليها، يتوجب على المرء، في سبيل كسر القيود التقليدية السابقة التي أرساها المستشرقون، أن يحاول الظفر بمنظور مختلف يباشر به ديانات شعوب الشرق الأوسط الأخرى على نحو يلقي بالشكوك على تيقنات المستشرقين. تشكك الباحثة "كارين آرمسترونغ"، المعروفة بـ"مؤرخة الرب"، باعتبار عنوان كتابها المهم المعنون (تاريخ الله)

A History of God، بتواشج عقيدة التوحيد بأديان الشرق الأوسط السامية الرئيسة عبر رصد معتقدات توحيدية قديمة للغاية وتتبعها، ليس إلى ذات الأقوام السامية، كما هو شائع، وإنما إلى "قبائل أفريقية أصلية" [٩] أي إلى قبائل بدائية كانت قد تأملتْ التوحيد كفكرة، فأطلقتْ على الخالق الواحد اسم "إله السماوات" the god of the skies. بيد أن هذه القبائل ما لبثت وأن أخفقت في التمسك بهذه الفكرة والمحافظة عليها حتى عصرٍ تالٍ، عصر شهد "شخصنة" الرب هناك، فالشخصنة (أي التجسد على نحو شخص) إنما تستتبع تعدد الآلهة على نحو تلقائي. لذا تقودنا فرضية أرمسترونغ إلى قناعة مفادها أن عقيدة التوحيد لم تكن حكرًا على الأقوام السامية التي قطنت الشرق الأوسط، كما ساد الاعتقاد طويلاً، باعتبار أن "فكرتنا عن الرب قد ظهرت تدريجيًا قبل حوالي ١٤٠٠٠ سنة". [١٠]

لذا يمكن للمرء أن يحرِّر نفسه من المُسلَّمات الغربية التي عُدت من البديهيات، خاصة بعد أن يطلِّع على تواريخ شيوخ المؤرخين المسلمين من هؤلاء الذين حبّروا تواريخهم عبر العصر الوسيط من أمثال المسعودي الذي يفاجئنا تاريخه (مروج الذهب) بحقيقة قد تكون صادمة، مفادها أن الشرق الأوسط كان بيئة خصبة لظهور المتنبئين، بمعنى أدعياء النبوة من هؤلاء الكهنة الذين إدعوا أنهم "رُسلٌ من الله" قبل ظهور الإسلام [١١]. لذا تؤشِّر القائمة المطولة من أسماء وقصص أدعياء النبوة التي يوردها المسعودي، من بين

مؤرخين آخرين، الخطوط الزئبقية المختلطة التي يفترض أن تفصل بين شخوص الكاهن والساحر والناسك والشاعر من ناحية، وبين النبي (حسب المفهوم الإنجيلي ومن ثم الإسلامي) من الناحية الثانية. وباعتبار هذ الاختلاط؛ فإن ظهور النبي محمد (ص)، سوية مع سواه من أنبياء الكتاب المقدس الذين تتبع نسبه إليهم، لم يكن ظاهرة فريدة في تاريخ إقليم شهد ظهور العديد من الأنبياء والرسل، إضافة على أدعياء النبوة، إقليم كان مسكونًا بأنواع الآلهة والغيبيات. إنه لمن المفيد أن يلاحظ المرء، على سبيل توكيد ما مرَّ ذكره، أنه لحظة لفظ محمد (ص) أنفاسه الأخيرة، برز عدد من أدعياء النبوة، ذكورًا وإناثًا، بدعوى إكمال رسالته أو بدعوى نسخها لتقديم دين جديد. لقد بدت هذه الظاهرة للمسلمين الأوائل بدرجة من الخطورة في تاريخ الإسلام أنها استتبعت ما سُمي بـ"حروب الردة" في جزيرة العرب لإعادة المرتدين إلى الدين القويم. وقد بقيت فكرة ترادف "الرؤى" بالفرد حاسمة في هذا السياق. ربما كان هذا الاختلاط وراء ما أشيع بين العرب عن انزعاج الرسول الكريم (ص) بما أشاعه المشركون من تُهم الكهانة أو الشاعرية في بداية إطلاق التبشير برسالته.(١٢)

وقد لاحظ كل من المؤرخ الأميركي واشنطن إرفنغ Washington Irving (١٧٨٣ - ١٨٥٩) والفيلسوف الأسكتلندي توماس كارلايل Thomas Carlyle (١٧٩٥ - ١٨٨١) التقاليد الدينية المرتبكة والمختلطة التي سادت بلاد العرب والشرق

الأوسط قبل الإسلام، على سبيل تبرير ظهور الإسلام[١٣]. ملاحظًا أن اليهودية والمسيحية قد حُرفتا عن عقائدهما الأصلية [١٤]، نظرًا لأن مجرد وجودهما سوية، مع وجود معتنقي العبادات الوثنية والشركية، إنما قد جسَّد ضرورات ظهور الإسلام.

بيد أن السؤال الأهم في سياقنا هذا، هو: أين ذهبت هذه العبادات والأنظمة الروحية القديمة؟ هل تلاشت في الفضاء ببساطة؟ أم أنها ضمت عقائدها إلى عقائد روحية لتقاليد دينية قديمة لتعاود الظهور كديانات تركيبية أو توفيقية؟

لذا فإن للمرء أن يزعم، بما يكفي من التيقن، أن العالم الغربي كان موهومًا، باحتضانه مفهومًا خاطئًا عندما تمسك بقرن الشرق الأوسط بالأديان الكبرى الثلاثة، لأنه قد أغفل بذلك تقاليد غابرة لديانات بقيت خارج فضاء اليهودية والمسيحية والإسلام، تقاليد عصت على الإذابة أو الإستحالة. كانت هذه ديانات افترض البعض أنها تدعو لعبادة أرباب سوى الرب الحق الذي تؤمن به الأديان الثلاثة الرئيسة، لأنها أديان حافظت على مفاهيمها ومنظوراتها الخاصة بـ"الخالق".

ينطوي هذا المفهوم المسبق غير الدقيق حول هذه الأديان ضمن سياق مناقشتنا هذه على الانحياز وعلى اعتماد معيار واحد ومفاهيم قسرية. لذا لايمكن وضع أغلب الديانات الثانوية في الشرق الأوسط في صنف الديانات التوحيدية سوية مع اليهودية والمسيحية والإسلام، على الرغم من أن هذه الديانات لا تشكِّل سوى "الرأس

المنظور" من غاطس جبل الجليد الذي يكمن على تاريخ غائر في القدم لأقوام كانت قد استقرت بهذا الإقليم ثم تركت تراثها العقائدي والروحي والنفسي الجمعي، رواسبًا، في دواخل عقول وتقاليد جماعات عرقية معينة على نحو عقائد وتقاليد وطقوس لم تزل باقية عبر الإقليم حتى اللحظة، متعايشة سوية مع الأديان الرئيسة.

ولكن على الرغم من أن خطة هذا البحث لا ترنو إلى بحث جميع هذه الديانات فانها تضطر لأن تقسِّمها، تأسيسًا على أصولها، على صنفين:

١- الأديان التي لاصلة لها ولم تتأثر بالأديان الرئيسة الثلاثة، أي اليهودية والمسيحية والإسلام، وهي الأديان التي نسلِّط الضوء عليها في هذا البحث مثل أديان أهل الحق والمندائيين واليزيديين.

٢- الأديان التي تفرعت عن الأديان الرئيسة الثلاثة، أو حملت آثارها كأديان الدروز والبابية والبهائية والأزلية وشهود يهودا والسامريين، من بين سواها من التقاليد الروحية.

على الرغم من أن معتنقي الأديان المشار إليها في الصنف الأول أعلاه لا يضطلعون بأدوار اجتماعية أو سياسية حاسمة، مقارنة باتباع الأديان الرئيسة، فإنه من المهم للمرء أن يلاحظ أن مجرد بقائها حتى اليوم إنما يشير إلى حقيقة مفادها أنها قد إجتازت اختبار الزمن وتجاوزت ما تعرضت له من مِحن وحملات وإساءات من قبل أتباع الأديان الرئيسة التي تحتضن أصلاً مبدأ

تبشيريًا يرنو إلى ضم أتباع ديانات الأقليات إلى الإسلام أو إلى المسيحية، اللّهم باستثناء اليهودية لأنها ليست من الأديان التبشيرية.

إن أديان الأقليات تشكِّل حالة بقاء وتواصل روحي تستحق الرصد والتحليل لأنها تجاوزت محاولات الإذابة والامتصاص في فضاءات الأديان الكبيرة، ولأنها تقاليد دينية لم تنقرض بسبب ما تكمن عليه من عناصر الوجود وتواصل الحياة، وهي حال تستحق البحث والدراسة كذلك، خاصة وأنها أديان متبعة في إقليم تمتطيه العصبيات الدينية وعواطف الغلو والتحاملات الطائفية، هو إقليم يحيا اليوم عصر الحروب الدينية والطائفية الذي طوته أغلب دول العالم بعد أوربا منذ زمن طويل.

ومن ناحية ثانية، يمكن لدراسة هذه الديانات الثانوية أن تلقي الأضواء على صفات جوهرية تحتفظ بها أقوام الشرق الأوسط المتنوعة اليوم، فتساعد على مباشرتها من المنظورين التاريخي والمعاصر على سبيل الاستنارة. يشكِّل أتباع كل واحد من هذه الأديان تمثيلاً للأنماط السلوكية والاجتماعية التي ميّزت ما سمي بـ"أديان المضطهدين" وحافظت عليها(١٥)، فهي أديان يعتنقها أقوام عرفت بقدراتها الاستثنائية على القتال وعلى المناورة، تجنبًا لمحاولات الضم أو الإبادة الجماعية. إن أتباعها هم جزء لا يتجزأ من فسيفساء أقوام الشرق الأوسط لأنهم لا يمكن أن يكونوا قد جاءوا من فراغ. لذا يتعذر فهم وإدراك روح شعوب الشرق الأوسط دون إدراج أتباع هذه الأديان ضمن جهد المرء لإجراء

مسح تعريفي ووصفي لأقوام الشرق الأوسط، فهم يكمِّلون الصورة السكانية لهذا الإقليم الذي أطلق عليه عنوان "إقليم المفارقات". ولا تقل أهمية في هذا السياق هي ملاحظة أن كل واحد من هذه التقاليد الدينية له تاريخ خاص به، وهو تاريخ يمكن أن يساعد على إلقاء الضوء على جوانب معينة من مجتمعات الإقليم، ماضيًا وحاضر.

وكما يصعب فهم الشرق الأوسط دون الإحاطة بأهميته الجيوستراتيجية المتمثلة بالممرات المائية وبما تختزن أراضيه من ثروات طبيعية، فإنه من الصعب كذلك فهم الإقليم دون الاهتمام بما ينطوي عليه من أهمية متجسدة بـ"الجغرافيا المقدسة" (التي شكلتها تواريخ الأديان) في الثقافة، أي الجغرافيا التي لابد أن تضم هذه التقاليد الدينية الثانوية موضوع الفصول التالية، ليس لأنها، طبقًا للمواقف المتحاملة للكثير من أتباع الأديان الرئيسة، لا تتطابق في عقائدها وفلسفاتها مع ما تمَّت تعبئة الأغلبيات به من عقائد وأفكار عن الرب والملكوت، ولكن لأنها قد أُهمِلت لزمنٍ طويلٍ من قِبَل الباحثين المحليين أنفسهم، ومن سواهم من الأجانب الذين دأبوا على الذهاب صوب "إقليم الكتَّاب المقدس" بدوافع جُلَّها ديني مبتسر، وربما بدوافع نفعية من النوع الذي ساد استشراق عصر الثورة الصناعية. لذا فإنه من الأغراض الأساسية التي توختها الصفحات التالية هو تعريف القُرَّاء بثلاثٍ من هذه الأديان المغمورة التي انتهى بها المطاف إلى صنف "أديان المضطهدين"، لأنها معتنقة من قِبَل أقليات صغيرة قد لا تقل أهمية، من الناحية العلمية، عن

سواها من أغلبيات أتباع الأديان الرئيسة، إذا ما أراد المرء الإحاطة بالشرق الأوسط وبشعوبه وعقائده على نحو شامل خال من الخيلاء أو التحامل[١٦].

بالرغم من حقيقة مفادها أن هذه الأديان قابعة في الظل، خارج متناول الباحثين المتوجهين إليها من داخل وخارج الإقليم، ونظرًا لتعمد إخفائها من قبل الأنظمة الشمولية التي توالت على حكم أغلب دول الإقليم بهدف تجسيد دور الأديان الرئيسة أو "الأديان الرسمية" فقط، فإن ما شهدته الأعوام الأولى من القرن الجاري من تفاعلات اجتماعية وانقلابات جذرية قد قادت إلى دفع هذه "الأديان المنسية" إلى المقدمة بعد أن بقيت كامنة في الخفاء بعيدًا عن العالم الخارجي وعن متناول الباحثين لأسباب عدة.

(ج)

في الوقت الذي كان الجمهور يشاهد فيه السجَّان وهو يلف حبل المشنقة حول رقبة الرئيس السابق "صدام حسين" وكأنه يشد ربطة عنق حولها، كانت شعوب الشرق الأوسط تدشِّن فصلاً جديدًا من تواريخها، وهو فصل القادة القتلى والرؤساء المتقاعدين الذين سرعان ما تبعهم قادة آخرون من هؤلاء الذين لم يكونوا بأقل من صدام حسين ومن زميله القتيل معمر القذافي طغيانًا. أما القادة المتقاعدون الذين نجوا من المشنقة أو من مصير القذافي الذي ظفر به الجمهور الغاضب فقتله بوحشية وبلا رحمة، بعد أن حكمه لما لا يقل عن أربعين سنة، فقد وجدوا ملاجئًا لهم في دول أخرى دأبت على توفير ملاجئ آمنة للقادة المخلوعين ولعوائلهم. والحق يقال، فإنه ليس هناك من هو متيقن من قدره تمامًا في إقليم الشرق الأوسط الملتهب وغير المستقر، قادة ومواطنين على حدٍّ سواء.

لقد وضعت التفاعلات والانتفاضات الساخنة التي أطلق الإعلام عليها عنوان "الربيع العربي"، تعسفًا، حدًّا لغياب الهدف والتيقن عبر الشرق الأوسط، ذلك الغياب الذي طال ما لا يقل عن تسعة عقود بلا انقطاع من حكومات الطغاة المتتالين. إنهم الطغاة الذين ما فتئوا يشيعون حلمًا سلفيًا وسيطًا، حلمًا يعتمد نقدًا انكماشيًا متعاميًا بالرجوعية حيال كامل التجربة الحديثة في التطور والتقدم، بوصفها تجربة غريبة مستوردة، "لا توائمنا"، بمعنى أنها لا تصلح للأقوام

التي يمتطيها التاريخ، تلك الأقوام القاطنة في إقليم حائر بين حقبتين، الأولى لا تموت، متجسدة بحلم الأسلاف الطللي، بينما تنكمش الثانية من أضواء آفاق الحاضر والمستقبل الواعدة.

ومع هذا، فقد كشفت نهايات الرؤساء القتلى المأساوية، التي تبعها ظهور ما نطلق عليه "نادي القادة المتقاعدين"، كشفت للجمهور جميعًا آفاق عالم جديد، عالم متحرر من المحرمات التي بقيت ممنوعة حتى وقت قريب. لذا انطلق الكُتّاب والمفكرون للتعبير عن رفضهم للشمولية، لحظة إزالة الاضطهاد، بعد أن كانت احتجاجاتهم مكبوتة على نحو غير مرئي لعقود سابقة. لقد ولّدتْ التغيرات الجذرية السريعة عبر دول الإقليم، التي بقي العديد منها في حال من التحجر لدهور بعيدًا عن التغير، رد فعل فكري انتقامي ثأري: فبدا الأمر وكأنه حال من الانتشاء لحظة شعور المرء بأنه حُرٌّ لاستشكاف الموضوعات والقضايا التي بقيت ممنوعة أو محرَّمة لزمن طويل.

تأسيسًا على وعي الأنظمة الشمولية الوسواسي بأن سلطاتها تعتمد في بقائها على وضع أقنعة التدين الإسلامي، فإنها قد عمدت إلى تصميم هذه الأقنعة حسب الأغراض الانتهازية المطلوبة، باعتبار ما تحتضنه غالبية شعوبهم من معتقدات دينية. وبهدف أن يتم النظر إليها بوصفها "راعية للدين الإسلامي"، تستمد سلطتها من هذه الرعاية في سبيل حماية الدين الرسمي والدفاع عنه، توسلت هذه الأنظمة الشمولية ردود أفعال انفعالية غير متأنية في

تعاملها مع التقاليد الدينية الثانوية ومع الجماعات والجمعيات التي لا تستجيب لقواعد الدين السائد، أي دين الدولة الرسمي. في العراق، على سبيل المثال لا الحصر، صدرت قوانين وتشريعات تقضي بإنزال عقوبة الإعدام بالأشخاص الذين يعتنقون الديانتين البابية والبهائية، وبهؤلاء الذين ينتمون لنوادي الأسود Lions أو لنوادي الروتاري Rotary، بافتراض أنها جمعيات مضادة للأديان، ذلك أن تجاهل هذه النوادي أديان الأعضاء عُدَّ اسلوبًا يمهد الطريق لاستبدالها بدين "كوني" لا يؤمن بالله، حسب بلاغيات الصحفيين والإعلاميين التي وُظِّفت على نحو مركز لتمرير مثل هذه القوانين "القاتلة". لقد لعب الإعلام دورًا قويًا لإشاعة وتثبيت قناع "حامي الدين" أو "القائد المؤمن" للحاكم الشمولي بين الجمهور المسكين من خلال تبرير مثل هذه التشريعات والفتاوى والإعدامات، كما فعل بعض الصحفيين العراقيين من الذين عملوا على تبرير أحكام محكمة عسكرية، عُرفت باسم "محكمة الثورة"، كانت قد أصدرت أحكام إعدام عديدة، فأرسلت أعضاءً سابقين في الماسونية ونوادي الروتاري للمشانق، زيادة على إعدام آخرين بُتهم متنوعة كالتجسس. الطريف في الأمر هو أن أحد هؤلاء الصحفيين وقد كان عضوًا في الحزب الشيوعي سابقًا قد أصدر العديد من المقالات والكراسات متهمًا النوادي والمنظمات أعلاه بالعداء للأديان والإلحاد، باعتبارها تهدف إلى إبعاد المؤمنين، مسلمين ومسيحيين، عن أديانهم الأصل، فكانت هذه من غرائب إقليم المفارقات في عصور الفوضى واللا يقين.

لقد بدا هذا المنطق الجارف قابلاً للتطبيق على الأقليات الدينية التي تختلف معتقداتها الروحية مع معتقدات دين الدولة الرسمي، أي مع معتقدات الأغلبية التي لا يُحسِن تمثيلها وحراستها سوى الحُكَّام "بأمر الله"! وكدليل على انتهازية مثل هؤلاء الحكام، فقد عمدوا إلى إصدار قوانين لا تقل قساوة وظلمًا، درجة الإعدام أحيانًا، بهدف محاربة أحزاب إسلامية، لا تمت للبهائية أو للماسونية بصلة، كما حدث بالنسبة لجماعة الإخوان المسلمين في مصر وسوريا، ولأعضاء حزب الدعوة الإسلامية في العراق، من بين أحزاب إسلامية أخرى.

لقد خدم هذا القناع المضلل الذي وضعه طُغاة الشرق الأوسط طوال عقود، لترويج صورة إقليم موحد برمته، إقليم يبدو وكأنه موحد بدين مُنزَّل واحد، الإسلام.

ولا يقل أهمية عن هذا التضبيب في الصورة هو مالعبته المداخل الغربية لدراسة الإقليم التي سقطت هي الأخرى، في أفخاخ مجاملة وتملق الأنظمة الاستبدادية في أحيانٍ عدة، داعمة رغبتها تقديم صورة موحدة لأقوام الشرق الأوسط للعالم. وقد زاد هذا المدخل الوحيد الجانب من حال تجاوز وتجاهل الجماعات الدينية "الأخرى" التي لا تقبل الضم إلى أي من أصناف التقاليد الدينية الرئيسة، أي الجماعات الدينية العصية على التصنيف التقليدي لما يسمى بـ"الجغرافيا المقدسة" [١٧]. لقد بدا الأمر وكأنك فردًا من مواطني الشرق الأوسط، لايمكن إلا أن تكون مسلمًا أو مسيحيًا أو

يهوديًا. لقد اعتمدت السلطات "زِيًّا موحدًا" بمساعدة بعض المستشرقين والصحفيين أحيانًا، للتضبيب على عدد من التقاليد الدينية واضطرار أتباعها الانكماش، لائذين بالظل بعيدًا عن معتقدات الأغلبية وقسرية السلطة، بل وحتى عن عدسات الإعلام والباحثين الأجانب، خشية الظهور على نحوٍ شاذٍ غير متوازٍ مع السائد. بل إن أتباع هذه الأديان كانوا بدرجة من المحافظة والتحسس من الرصد والدراسة لتحاشيهما، أنهم فضَّلوا الخصوصية النائية بنفسها عن الأضواء على الإعمام المعرفي على مستوى عالمي واسع.

لهذا النوع من التحسس واللوذ بالصمت والمحافظة مايبرره بقوة (خاصة في سنوات العقد الماضي) بسبب انتشار وانتشاء الحركات الإسلامية الراديكالية والجماعات الإرهابية التي دأبت على توعد الآخرين، وبضمنهم مسلمين، بـ"التكفير"، نظرًا لعدهم جماعات لا تؤمن بما تؤمن به هذه الحركات من إسلام متشدد خاص بها، الأمر الذي أوجب "القصاص الشرعي" عليها.

لقد لاذت الأقليات الدينية بالانفصال والابتعاد، اعتمادًا على العيش في زوايا و جيوب جغرافية مستقلة وبعيدة المنال وذاتية الاكتفاء لتجاوز الاحتكاك بالأغلبية ولتجنب اضطهاد الغلاة منها، الأمر الذي أسهم في تشكيل بِنى مهمة في "سايكولوجية الأقليات" التي سنخصها بالدراسة والمناقشة في فصلٍ لاحق. بل وصل أفراد هذه الأقليات درجة من التحسس أنهم راحوا يشعرون بأن من يطلب

المعرفة المجردة عن أديانهم وأحوالهم إنما هو شخص عدائي يقصد الإساءة، خاصة عندما يحاول أن يعرف أكثر مما ينبغي، أي أكثر من المسموح به تقليديًا، خشية العبث بتصويرهم وتحريف تقديم دينهم وتمثيل مجتمعهم المغلق على نحوٍ مشوَّه.

مع إشارة خاصة لهذه الأنظمة الدينية التي يغلب عليها الطابع التوفيقي أو التركيبي، أي الأنظمة التي لا تبدو عقائدها مطابقة لعقائد الأديان السائدة، بمعنى الأديان الرسمية التي تحتضنها الأنظمة الحكومية، اسميًا فقط، للنجاة من التغير، تذهب الباحثة "كرزتنا كيلبودروغي" Kehl-Bodrogi إلى رصد تعقيدات وجود هذه الأقليات في الدول التي تعتمد الإسلام دينًا رسميًا، مثل تركيا أو إيران أو العراق، كي تلاحظ أن الحكومات في هذه الدول تحاول أن تتجاهل هذه الأقليات الدينية على سبيل تحقيق نوع من التوفيق بينها وبين دين الأغلبية الرسمي [١٨] ، من ناحية أولى، وعلى سبيل اعتماد سياسة تهدف لتطمين هذه الأقليات بعدم التمييز، من ناحية ثانية. المقصود من ذلك هو تطمين هذه الجماعات الدينية بتوخي العدالة الاجتماعية وبضمنها عدالة التوظيف وتسنم المناصب المهمة في أجهزة الدولة من قبل الجميع، شريطة عدم إشهار أتباع هذه الأديان معتقداتهم الدينية على نحو علني صارخ بضمن مهاد رسمي إسلامي غير موائم. يُعتمد هذا النوع من السياسات المزدوجة المعايير لردم الهوة بين سياسات ما يسمى بـ"الدين الرسمي" مناقضًا لسياسات الديانات الأخرى، هذا جانب آخر من

جوانب سياسات المواقف المنافقة السائدة في العديد من دول الشرق الأوسط، نظرًا لعدم توخيها أنظمة سياسية ديمقراطية تعتمد العدالة المطلقة أساسا للمساواة بين المواطنين دون تمييز، الأمر الذي يقود هذه الحكومات إلى اللوذ بالروح التوفيقي، إذا لم تعتمد اللجم والبتر كما لوحظ في أعلاه.



أهل الحق: الروح في عالم مزدوج

أيها الرجال لا تخشوا عقوبة الموت. موت الرجل يشبه غطس البط.

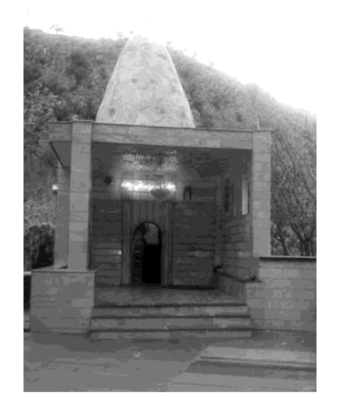
(مثل يارساني شائع)

أتأمل ذلك طوال النهار، ثم أردِّد ليلاً: من أين جئت، وما الذي يفترض بي أن أفعله؟ لست أدري.

روحي تنتمي لمكانٍ آخر، أنا متيقنٌ من ذلك، وأنوي أن أنتهي هناك.

(جلال الدين الرومي)

• • • • •



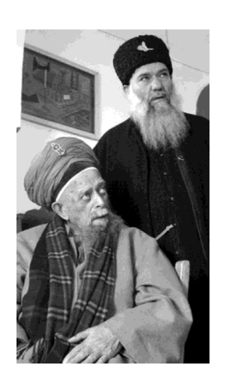
يُراد بعبارة "العالم المزدوج" الواردة في العنوان أعلاه، التلميح لجوهر فلسفة دين أهل الحق في الوجود، تلك الفلسفة التي ترتكن للإيمان بوجود عالمين: الأول، هو ذلك العالم (مع الإشارة إلى

المثل اليارساني المقتبس أعلاه) الذي يحيا فيه الروح المرموز له بالبط قبل أن يغطس تحت سطح الماء، بينما يتمثل العالم الثاني في ذلك العالم غير المرئي الذي يخبره الروح تحت سطح الماء عندما ينغمر البط على نحو خاطف. بينما يتبلور العالم الأول ماديًا ومرئيًا وملموسًا من قبل البشر، يكون العالم الثاني غيبيًا لا منظورًا من قبلهم.

وعلى سبيل تفحص المصطلح اليارساني (لنلاحظ أن لفظ يار يعني وطن الله باللغة الكردية) الذي غالبًا ما يوظف المفردات العربية، مستكردةً، فإن العالم المادي المنظور الذي نحيا فيه إنما يخضع لتأثير عالم آخر لا نعيه، يُسمى بـ"العالم الباطن"، أي العالم الذي يتحكم بأرواح البشر وبحياتهم، والأخير عالم خفي.

ولكن على الرغم من عدم وضوح الآصرة بين العالمين من قبل الرائي الخارجي، فإن عالميَّ الروح هذين لا ينفصمان تأسيسًا على نوع من الانعكاسية، وكأن ما يحدث في عالم الروح الباطن ينعكس كالمرآة على عالم الروح الظاهر، والعكس صحيح، فثمة علاقة انعكاسية متآصرة بين العالمين. هذا المنظور يصعب إدراكه من قِبَل أتباع الأديان التقليدية الرئيسة.

وكما هي عليه حال الديانتين المندائية واليزيدية (يراجع الفصلين الثالث والرابع التاليين)، توجد ثمة أبعاد روحية معينة في دين أهل الحق هي حِكرٌ على رجال الدين اليارسانيين المعروفين بالـ"سادة"، نظرًا لمعرفتهم المتعمقة بالدين، وهي معرفة بعيدة



المنال بالنسبة للعامة من أتباع هذا الدين، الأمر الذي يؤهل رجال الدين فقط لتلاوة نصوصهم المقدسة المعروفة بالـ"كلام" في مناسبات دينية معينة تعرف بالـ"دجام"، وهي مناسبات تتجسد فيها آصرة الأخوة بين المؤمنين على سبيل تجربة التسامي فوق مكبلات المادة إلى الأعالي عبر تجربة نوع من اللذات الروحية التي تمكِّن المؤمنين من فعل ما لايمكن للمرء أن يعقله، كالسير حفاةً على الجمر الملتهب [1]. للمرء أن يلاحظ ثمة توازٍ بين هذه الآفاق الروحية المتسامية وتقاليد المتصوفة.

ولكن على الرغم من مبالغة بعض الباحثين في التوكيد على "الرابطة الأخوية" التي تجمع بين أهل الحق، درجة خلق الانطباع بأن هذا الدين لايزيد عن كونه "أخوية" مكونة من أفراد متساوين، فإن للمرء أن يشير إلى الطبيعة الطبقية أو المرتبية لمجتمع أهل الحق الذي يبدو، من منظور سطحي، مجتمعًا مكونًا من أفراد متساوين من الأخوة والأخوات. أما الحقيقة فهي تختلف عن ذلك، لأن "المعرفة الروحية" هي المعيار الأساس الذي يرتكن إليه نوع من التدرج الطبقي الديني/الاجتماعي للأفراد بضمن هرمية دينية خاصة بأهل الحق. إن هذه المعرفة الروحية إنما هي المسؤولة عن توزيع الأفراد على سُلّم مجتمع هذه الأقلية الدينية الهرمي، مقسمة إياهم إلى أربع جماعات أو مرتبات، ابتداءً من المرتبة الأعلى،

وهي المرتبة الخاصة بهؤلاء الذين بلغوا "الحقيقة المطلقة" ("حقيقت"، بلغتهم). وباعتبار اعتماد المعرفة الدينية والروحية معيارًا أوحدًا للتوزيع المرتبي للأفراد، تبدو طريق تسلق هذا السُلَّم واضحة للعيان، إذ يتوجب على اليارساني المؤمن أن ينذر حياته لتسلقه بادئًا بالمرتبة الدنيا الأولى، أي مرتبة "التعرف" knowing، ويقصد بها التعرف بكتاب أهل الحق المقدس المعروف بـ(كلامي سانجام) Kalame Sanjam، بوصفها مرتبة ابتدائية تتطلب الإلمام بأوليات الدين وتشريعاته وطقوسه الأساسية، أي التعرف بـ"الشريعة" ("شريعت"، بلغتهم). وتلي ذلك مرتبة الباحث عن الحقيقة التي يرتقي بها المومن السلم درجة أعلى في سبيل فقه الطريق المؤدية إلى مرتبة معرفية أعلى، الأمر الذي يبرر تسمية المرتبة التالية بـ"الطريقة" ("طريقت"، بلغتهم). أما المرتبة الثالثة، فهي مرتبة المُكرَّس Dedicatee ، وتتحقق عندما يكرِّس الفرد وجوده للمعرفة الروحية المعمقة. لذا تعرف هذه المرتبة بـ"المعرفة"، ("معرفت"، بلغتهم). أما أسمى الطبقات، أي طبقة الحقيقة التي مرَّ ذكرها، فإنها من الطبيعي أن تمثِّل تتويجًا لجهد الإنسان في سعيه للمعرفة الروحية "المطلقة"، إن صح التعبير في سياق كهذا. إذا ما بلغ الفرد اليارساني هذه الطبقة فإنه يسمو بنفسه فوق العالم المادي المنظور "الظاهر" ("زاهر" في لغتهم)، المشار إليه في أعلاه، على سبيل سبر أغوار حقائق العالم الباطن ("باتن" في لغتهم) الخفية، وهو عالم الحقيقة الباطنية

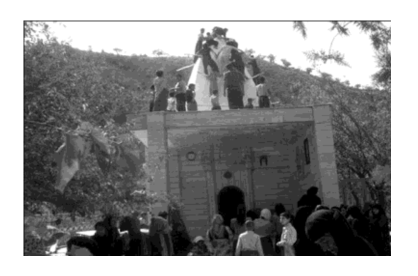
الكامنة خلف العالم الظاهر الذي لا يشكِّل - حسب عقائدهم - سوى لباسًا خارجيًا يلف عالم الحقيقة المبطونة، المطلقة. وللمرء، في هذا السياق أن يستذكر "فلسفة الملابس" التي طرحها الفيلسوف الأسكتلندي توماس كارلايل Carlyle (١٧٩٥ - ١٨٨١) في كتابه المأثور المعنون (سارتور ريسارتوس) Sartor Resartus (المنشور بين ١٨٣٣- ١٨٣٤)، إذ أنه عندما تحدث عن "فلسفة الملابس" إنما كان يقترب كثيرًا من عقائد أهل الحق وتيقناتهم دون أن يفقه وجود دين مؤسَّس على شبيه لهذه الفلسفة في الشرق الأوسط، لنلاحظ شيئًا مما كتب كارلايل في الكتاب أعلاه: " إن الذي تراه ليس موجودًا بذاته، بل هو، بالمعنى الأدق لا موجود، موجود فقط ليمثِّل فكرة : فالمادة موجودة فقط على نحوٍ روحي، بهدف أن تجسد فكرة ما لتقديمها... ما الإنسان ذاته وحياته الدنيوية سوى رمز "(٢).



ولكن من ناحية أخرى، سوى الناحية الطبقية المؤسَّسة على درجات المعرفة الروحية، تتجسد المساواة الأخوية بين أهل الحق فيما يطلقون عليه بلغتهم الـ"دجام" djam، وهو نوع من التجمعات الدينية/ الاجتماعية التي يقيمها أهل الحق على نحو دوري لمراجعة حال مِلتِّهم ومجتمعهم، ولمعالجة قضاياه وإشكالاته. تُنظَّم تجمعات "الدجام" أعلاه من قبل ما يسمى بـ"الخاندانات" khandān، وهي روابط فرعية تجمع أهل الحق كأخوة وأخوات، ليس بآصرة الإيمان الديني فقط، وإنما بالآصرة الأخوية الأسرية كذلك. تنبع هذه الآصرة الأسرية من تآخي أفراد "الخاندان" الذين يخضعون لإرشاد وتوجيه رجل أو عرَّاب يرمز للأبوة الروحية في سبيل قيادة هذه الوحدة الدينية/الاجتماعية الفريدة، الخاندان. هذا المرشد هو رجل مهيب يخدم رئيسًا ورمزًا أبويًا، لذا يطلق عليه لفظ "سيد" لأن جميع أفراد الخاندان يأتمنون "رقابهم" بين يديه، كناية عن ثقتهم المطلقة به. هذا النوع من إئتمان الفرد حياته بيد "السيد" إنما يتحقق بنذر، يسمى في لغتهم بـ"سار سيبوردان" sar sepordan، ويعني أن ينذر عضو الخاندان نفسه لعهد مقدس covenant يؤمنون بأنه تجسيد لعهد قديم؛ عهد كان قد عُقد بين الرب وجبرائيل باعتبار أن الأخير هو "السيد الأبدي"، حسب معتقداتهم.

إن هذه "الأبوة" التي تشرف على نظام الخاندان إنما هي في جوهرها اعتراف المؤمن من أهل الحق بسيادة "السيد"، بمعنى رئاسته للخاندان، أي الرئاسة التي تؤهله لحمل لقب "بير" Pir، أي

المرشد على الطريق الطويلة نحو الحقيقة المطلقة. وتاسيسًا على ذلك تنمو آصرة أسرية بين أفراد الخاندان، وهي آصرة أخوة تتبلور بالشراكة في الرضوخ لتوجيه وقيادة سيد أو "بير" واحد، هو بمثابة والدهم جميعًا. ولأنه لا يوجد اليوم عند أهل الحق سوى أحد عشر خاندانًا في عموم أنحاء العالم، فإن للمرء أن يفترض أن الخاندان إنما يمثِّل عائلة بديلة للعائلة البايولوجية المتواشجة بصلة الدم. لذا فإن ولاء أفراد الخاندان لرمز أبوي واحد تحيل الآصرة بين الـ"بير" (أي رئيس الخاندان) والمريد (أي عضو الخاندان) إلى آصرة ثابتة، غير قابلة للإنفصام مدى الحياة، لأنها آصرة أبدية، حسب معتقداتهم. هي آصرة تهيمن على عقلي الشخصين المقصودين، باعتبارها آصرة السيد بمريده (بير/مريدي، بلغتهم)، أو آصرة الأب بابنه. لا ريب بأن هذا تنظيم ديني فريد متأسس على نوع من إعادة تنظيم الصلة الأبوية/الأخوية بضمن مهاد الخاندان غير المألوف في الأديان الأخرى، درجة أن أفراد الخاندان يغدون عائلة واحدة، فلا يتزاوجون فيما بينهم، إخوة وأخوات[٣].



وإضافة إلى الآصرة الأسرية التي تخلقها مؤسسة الخاندان بين أفراده، يتولد ثمة نوع من التضامن بين أفراد هذه الأقلية الدينية عامة، وهو تضامن ديني صلب تجسده أغلب الأقليات الدينية لأنه يمثل شرطًا مسبقًا لبقاء تلك الأقلية وتواصلها بضمن مهاد اجتماعي عدائي أشمل، كما هي عليه الحال في المجتمعات الإسلامية التي تتنامى فيها الحركات الدينية الجذرية والتكفيرية بوتيرة سريعة. هذه هي دواعي تكافل أهل الحق في آنيتهم الاجتماعية الأوسع عبر بقاع تواجدهم الجغرافي في العراق وإيران وتركيا، على نحو خاص. يلقي هذا النوع من التضامن بين أفراد هذه الأقليات الضوء على التكافل الذي يحرص عليه أهل الحق على نحو متواصل، الأمر الذي يذكِّر المرء بتكافل اليزيديين المستقرين حوالي مدينة الموصل، شمال العراق، نظرًا لتفضيلهم السكنى في مناطق جبلية وعرة طوبوغرافيًا بعيدة المنال بالنسبة للغرباء وللمتطفلين الذين غالبًا ما يرونهم وكأنهم معتدين، فيقول لسان حالهم: شكرًا للعقبات الجغرافية الطبيعية لدورها الأمني العازل(٤).

إن رؤساء الخاندانات الذين سبق ذكرهم، أي السادة، إنما يحظون بنظرة علوية من قِبَل العامة، نظرة تعدهم رجالاً مقدَّسين، أهلاً للطاعة المطلقة من قِبَل أهل الحق جميعًا، خاصة وأنهم يعدون تآصرهم بهؤلاء السادة القديسين أسمى من أية آصرة تربطهم بأي شخص آخر في الوجود. يرتقي هؤلاء الذين يحظون بلقب الـ"بير" أو السيد على العامة بسبب انحدارهم "الروحي"، الذي ينسبونه إلى

الملاك الرئيس "بنيامين" (تجسيدًا لجبرائيل)، وهو الملاك الرئيس الأول من بين الملائكة الرئيسة Archangels الذين يعرفون بالـ"هافتان" haft tan بلغة أهل الحق الكردية. وهم الملائكة "المذكرة" الرئيسة الأساس، الذين تضاف إليهم ملاك رئيس مؤنث واحد، هي السيدة "خاتوني رازبار" Khatun-e Razbar، والدة مؤسس هذا الدين، "سلطان ساحاق" أو "السلطان إسحاق". إنه لمن الطريف أن يلاحظ المرء أن أهل الحق ينظرون إلى السيدة خاتوني رازبار بوصفها معادلاً للسيدة مريم العذراء عند المسيحيين، نظرًا لطُهرها وعفتها: فهي ولدت سلطان ساحاق دون أن يمسها رجل، كما سنفصل ذلك لاحقًا(٥).

يضطلع بقية الملائكة الرئيسين، إضافة إلى بنيامين وخاتوني رازبار، بوظائف محددة، حسب معتقدات أهل الحق الدينية، وهي الوظائف التي تكمل كل واحدة الأخرى في ملكوت روحي مهول يصعب الإلمام به أو إدراكه من قبل العامة.

والملائكة الرئيسون الباقون هم:

- داود، وهو الذي يجسد الملاك "ميخائيل".
- مصطفى (المختار أو المجتبى)، والذي يجسد الملاك "عزرائيل".
- "بير موسي"، والذي يجسد الملاك المسؤول عن تسجيل أفعال البشر، ويعتقد أهل الحق أنه هو من ألف كتابهم المقدس المعروف بـ(كلامي سانجام).
- بابا ياديغر (٦).



تتعزز السلطة الدينية للسادة من رؤساء الخاندانات بحق تلاوة نصهم المقدس المعروف بـ"كلام"، على نحو منوَّط ومُلحَّن على أنغام آلات موسيقية خاصة، وأحيانًا بمزجه بيما يسمى بـ"الذكر"، أي الترتيلات الدينية المتسامية التي ما تلبث وأن تنطلق لحظة السمو بالذات إلى رحاب لذة الارتقاء الروحي التي تذكرنا بما يحدث عند المتصوفة في الإسلام وفي سواه من الأديان.

يؤمن أهل الحق أن الله (ويسمى خافانداغ، أي الجوهر الرباني، بلغتهم) قد خلق الكون والمخلوقات ومنها البشر، بوصفه السبب الأول؛ ثم ترك الكون كي تديره ستة تجسدات له من خلال حلول روحه في دواخل اشخاص (عقيدة الحلول)، ابتداءً من زمن التكوين حتى حقبتنا الجارية. لذا فإن هذه التجسدات إنما تلبس الشكل الآدمي، فتعد في عقائدهم من المظهريات ("مزهريات"، بلغتهم)، لأنها انعكاسات ظاهرة مرئية للجوهر الرباني، أي (الخافانداغ). وإذا كان هذا الجانب المزدوج للكينونة يتماهى إلى مثل هذه المديات، فإنه يساعد، من ناحية ثانية، على تطوير عقيدة "التشبيه"، أي تشبيه الشيء بالخالق[٧]. لذا تتطابق هاتان العقيدتان مع الأعمدة السبعة لديانة أهل الحق، خاصة بقدر تعلق الأمر بالعقائد ذات الصلة بالتجسد الإلهي وبما تؤول إليه من تيقنات ثنوية، بمعنى نسب الخلق إلى إلهين، وهي من العقائد التي كانت سائدة في بلاد

الرافدين وفارس في عصور ما قبل ظهور الديانات التوحيدية، لذا يتشبث بعض الباحثين المضادين للتشيع بمثل هذا العقائد اليارسانية لنسب الغلو والحركات الشيعية الغالية إليها والعكس صحيح، خاصة وأن الأخيرة قد ظهرت وانتشرت في ذات الأقاليم المذكورة أعلاه عبر العصر الأموي على نحو خاص (٨). يزعم هؤلاء الباحثون أن الجماعات العلوية الموجودة في تركيا وإيران وأنحاء من العراق إنما يعبدون الإمام علي بن أبي طالب (رض) من دون الله، حسب معطيات طرائق النقد الباحث عن الأخطاء. لذا فإنهم ينتقون عددًا من العقائد والتيقنات التي يحتضنها الشيعة، مثل المهدوية، على سبيل نفي الشيعة خارج فضاء الإسلام ككل.

في كون مسكون بالأرواح والأشباح كذلك الذي يؤمن به أهل الحق، يضطر أهل الحق إلى الإيمان بأنهم إنما يشاركون "مخلوقات" وقوى أخرى في الوجود بدواخل هذا الكون، ومن هذه المخلوقات تلك الأرواح التي سبق أن تلبست بألف شكل بشري على طريقها الكونية الطويلة لبلوغ الحقيقة المطلقة ("حقيقت"، في لغتهم) التي قدر لها أن تبلغها عبر تناسخات روحية تسلسلية متتالية حتى حدوث التناسخ الأخير (٩)، ويكون هذا التناسخ الأخير رقم ١٠٠١. لذا فإنه من المفيد أن نبحث على نحو علمي عن صلة هذا الرقم بالثقافات الشرق أوسطية الوسيطة وبأهم أعمالها الفولكلورية، مجهولة التأليف، كتاب (ألف ليلة وليلة)، المعروف في العالم الغربي بـ(الليالي العربية). قد ينجلي هذا المعتقد اليارساني بتتابع

الروح التناسخي على نحو صندوق صيني لا متناهي، عن تجسدات متتالية حتى ألف مرة ومرة؛ وهو قد يؤشر صلة بالثقافات الشرق-أوسطية القديمة. ولكن بالرغم من طول هذه الرحلة الكونية للروح عبر ألف تلبس وتلبس بجسد مختلف، فإن تقليد أهل الحق الروحي، كما هي عليه حال تقليد المندائيين (راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب) إنما ينطوي على فلسفة فريدة في نظرتها للتاريخ الكوني، وهي فلسفة تقسِّم هذا التاريخ إلى عدة حقب كبرى تأسيسًا على الشكل البشري الذي يحل به "الجوهر الإلهي" (خانداغار) على سبيل التجسد. وللمرء أن يلاحظ هنا أنه ليس من الواضح على نحو دقيق كيف تمَّ هذا التحقيب وكيف تدشن ثم تغلق كل حقبة كبرى، وماهي دلالاتها وجدواها، بالرغم من أن أهل الحق يؤمنون أن الحقبة الأولى تتوازى مع أول الملائكة الرئيسين الذين تمت الإشارة إليهم أعلاه، بينما تتوازى الحقبة الثانية مع الإمام علي (رض)، تجسيدًا للرب. من هنا نبع الخطأ الشائع الذي يفضي إلى عد أهل الحق جماعة شيعية غالية، وهو مفهوم خاطئ شاع بين المسلمين السُّنة خاصة هؤلاء الذين يجاور سكناهم مناطق سكن أهل الحق. ولكن من ناحية ثانية، يمكن أن يستفيد أهل الحق من هذا الخطأ الشائع، خاصة وأنه يوفِّر لهم غطاءً تمويهيًا يحميهم من عبث وتجاوزات بعض المسلمين المتطرفين في شؤونهم، زد على ذلك خشية أهل الحق من تندر هؤلاء بعقائدهم الأساسية. لذا يغدو اللوذ باسم الإمام علي (رض) أشبه بتقليد "التقية" عند الشيعة، وهو التقليد الهادف

إلى إخفاء مواقفهم السياسية وعقائد جماعتهم الدينية خشية إحالتها إلى سلة الشرك أو البدع من قبل المسلمين عامة، فتوجب محاربتهم. إن الهدف النهائي لذلك كله هو تحقيق الأمان. إن التشبث باسم الإمام علي (الذي يسمى شاه كوشن، في لغتهم) في التقاليد الدينية التركيبية أو التوفيقية من هذا النوع، وكما هي عليه الحال مع أهل الحق، إنما يكون مفيدًا ومقيدًا في ذات الوقت بالنسبة لأتباعها، باعتبار أن تضمين هذا الاسم المقدس عند المسلمين يندرج في الطبيعة التركيبية الأساس التي قامت هذه الأديان عليها. إن الإمام علي (رض)، في هذا السياق، مهم من ناحية ثانية لأنه يرمز للتجسد الإلهي الثاني في عقائد أهل الحق، إضافة للتجسدين الآخرين للجوهر الإلهي، خاصة التجسد الأخير في شخص سلطان ساحاق، مؤسس هذا الدين. وإذا كان الاعتقاد بأن سلطان ساحاق قد ولدته أمه "خاتون رازبار" تجسدًا إلهيًا، فإنه، على أغلب الظن، اعتقاد مستدان من العقائد المسيحية. لذا يكون ضم اسم الإمام علي استكمالاً للطبيعة التوفيقية أو التركيبية لهذا النظام الديني. ثمة عنصر مسيحي في الحال الأولى وعنصر إسلامي في الثانية. أما في الأولى، فيتجسد ذلك في ولادة سلطان ساحاق من أمٍّ لم يمسها رجل، إذ تذهب الأسطورة إلى أنه كانت هناك عذراء كردية غافية تحت شجرة رمان، وإذا بطائر ينقر إحدى الثمار المتدلية من الشجرة، مسببًا سقوط البذور الحلوة من تلك الشجرة إلى فم الشابة الجميلة كي تتلقح منها ثم تلد مؤسس الديانة اليارسانية، سلطان

ساحاق. و إضافة على إيحائها بفكرة العذراء المسيحية، يحيل بعض الباحثين ذات الحكاية إلى أصول أقدم، أصول زرادشتية ومن ثم إلى المأثور "المثري" Mithraic القديم، لأنهما قد أداما فكرة "بتولية" مشابهة تتصل بولادة "زاراتوشترا" و"سوشيانت" المخلصين، حسب الأساطير الإيرانية/الكردية القديمة.

للمرء استمكان معتقدات أهل الحق المهدوية في نص كتابهم المقدس (كلامي سارانجام) والمعروف كذلك بعنوان (سنجار) اختصارًا، أي "خلاصة الخطاب"، وهو كتاب مؤلف من ثلاثة أقسام رئيسة يمكن مباشرتها كتمثيلات لحقب ألفية، كل واحدة منها تتشكل من تجلي تجسد إلهي معين. وبالرغم مما يعتوره هذا الكتاب من شكوك حول التأصيل وغموض حول التأليف، فإن للمرء أن يلاحظ أنه مؤلَّف من الشعر القصصي الذي يُنسب إلى "بيرموسي"، الملاك الرئيس المسؤول عن التسجيل. لذا فإن الأقسام الثلاثة من الكتاب تؤشِّر ثلاث حقب، حسب عقائد أهل الحق في الوجود، وهي: أولاً، "حقبة الرب"، "خانداغار"، وثانيًا، حقبة "علي خاشن"، وثالثًا، وأهم الحقب السابقة، هي حقبة "سلطان ساحاق" القائمة لليوم، أي الحقبة التي دشنها ظهور مؤسس ديانة أهل الحق، سلطان ساحاق. تمثل هذه الحقبة الأخيرة غاية التجسد المتمثل بحلول الجوهر الإلهي في جسد إنسان. لنلاحظ بأن حياة سلطان ساحاق (١٠) كانت قد تناغمت إلى حدٍّ بعيدٍ مع غموض أسطورة ولادته التي سبق الإشارة إليها. وبوصفه التجسد الإلهي

المطلق، فقد ظهر الرجل، حسبما نقل عن سيرته من قبل المؤمنين به من أتباع هذا الدين، مزيجًا من الحقيقة والأسطورة. إنه يرمز لعقائد أهل الحق الألفية المهدوية، فقد عُدَّ سلطان ساحاق مصلحًا وباعثًا للعهد الأصل المسمى بـ"بياباسي بارديفاري"، باللغة الكردية، أي العهد الذي تمَّ بين الخالق والإنسان. وتأسيسًا على أن سلطان ساحاق يضطلع بمهمة بهذه الجسامة يعد ظهوره تدشينًا لواحدة جديدة من الحقب العظمى الأساسية التي أشرنا إليها في أعلاه، أي الحقبة التي شهدت ظهور دين أهل الحق نظامًا روحيًا.

لقد بدأ سلطان ساحاق باستقطاب العديد من المريدين والتابعين من الباحثين عن الحقيقة المطلقة، إذ أنهم وجدوا عنده الأعمدة العقائدية الأساس التي يتمسك بها أهل الحق المؤمنون أيمَّا تمسك حتى اليوم. كما ويُشاع عن حياته أنه قد عاش حياة متسامية حتى حضرته المنية، فدُفن في منطقة شيخان بالقرب من مدينة الموصل، شمال العراق، إذ استحال قبره مزارًا يتردد عليه المؤمنون في مناسبات دينية عدة على نحو سنوي.

لا ريب في أن "التآخي" هو أهم مبدأ وضعه سلطان ساحاق لمريديه وللمؤمنين بدينه، تلك الرابطة التي تجسِّدها مؤسسة الـ"خاندان" التي أشرنا إليها في بداية هذا الفصل، بوصفها مؤسسة "أخوية دينية" ("سارسيبوردان" بلغتهم)، تنعم بقيادة ورعاية "السيد" الذي يشبه العرَّاب في تمثيله سلطة روحية أبوية يقدم لها أهل الحق عهد الوفاء والإيمان والولاء المطلق درجة الاقتداء.

تنبع من هذه الآصرة الأخوية المتينة التي تمثلها مؤسسة الخاندان آصرة أُسرية قوية، هي من أهم السجايا المشتركة لدى جميع أنظمة الأقليات الدينية، نظرًا للحاجة القوية للتماسك من أجل الدفاع عن الذات، وفي سبيل عكس القيمة الذاتية الخاصة بهذه الأقلية بضمن مهاد اجتماعي إسلامي أوسع يميل لأن يخص هذه الأقليات بنظرة دونية ملؤها الشك في أنها ديانات مشركة أو عبادات وثنية كافرة. هذا هو ما يفسِّر الخوف الهاجسي من الآخر في دواخل أهل الحق.

إن محافظتهم على نظام تزاوج مغلق، لا يسمح بالاقتران بمن هو أو هي من أتباع الأديان الأخرى، قد تعززت بطوبوغرافية البقاع الكأداء الصعبة المنال التي يسكنونها على نحو متناثر. لقد جعلت هذه الطبيعة الجغرافية الصعبة من رجالهم مقاتلين أشدَّاء، إذ ترمز شواربهم الطويلة - التي يُحرَّم عليهم قصّها أو تقريمها مدى الحياة - للرجولة والبسالة اللتين يعتزون بها تعبيرًا عن الاستعداد الدائم للقتال وللمحافظة على مسافة نفسية واجتماعية بينية تفصلهم عن سواهم من أتباع الأديان الأخرى.



المندائية : دين الوعي الكوني والإيمان بأبدية الروح

عند التعميد يعود المرء إلى حال الخلق...
عندما كانت الإنسانية جمعاء موحدة.

(ل. مايكل وايت)

بقي التعميد دائمًا مركبًا من أنماط ثقافية كونية: فقد أخذ أشكالاً معينة في الثقافات المتنوعة، مشكلاً بدوره هذه الثقافات.

(أيرن كافاناغ)

• • • • •



إذا كان من الأهمية بمكان دراسة أديان الأقليات في الشرق الأوسط، فإنه من الأكثر أهمية وضع هذا الموضوع إزاء خلفية جغرافية تجسِّد مركزية هذا الإقليم وسط العالم القديم وإحتوائه على الوديان الخصبة، ونزوع شعوبه لتأسيس تقاليد دينية وإزالة أو الانتقال إلى أخرى. زد على ذلك ملاحظة مركزية بلاد الرافدين لأنها تقع في قلب الشرق الأوسط، أي في قلب القلب؛ إذا صحَّ التعبير.

كان وادي الرافدين الخصيب، قبل اكتشاف القارتين الأميركية والأسترالية بؤرة العالم القديم بحق، لأنه بقي مدى الدهور جاذبًا للتاجر وللجندي وللمغامر وللبدوي ولصيَّاد الكنوز وللدرويش وللناسك [١]، من بين آخرين من أنواع الشخصيات التي توجهت صوب الرافدين، كل واحدة لأغراضها أو لخدمة مصالحها الخاصة. لم تعكس هذه الحقيقة التاريخية ببلاغة أقوى، بضمن سياق دراسة الديانات التوفيقية، مما كتبته واحدة من أبرز "المستعرقات" [٢]، وهي السيدة "دراور E.S. Drower" (١٨٧٩-١٩٧٢)، تلك السيدة التي كرَّستْ حياتها لدراسة أقوام وأديان هذه البلاد فحبّرت انغماسها بسحرها؛ أرضًا وأناسًا، في كُتبٍ مهمة، مركِّزة على نزوع سُكَّانها الروحي وللقارئ شيئًا من شذرات ما كتبته:

تمتد السهول الرسوبية العظيمة لدجلة والفرات بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى لتبقى على تواصل دائم بكليهما. لذا صبت مسارات الطرق العالمية منذ أقدم العصور، من مرتفعات إيران،

ومن هِضاب آسيا ومن صحارى بلاد العرب، من سهول الهند عبر ما يُسمى اليوم "العراق" لتتجه منه نحو حوض البحر المتوسط. لذا تعرَّض سكانه لمختلف التأثيرات من جميع جهات العالم المتحضِّر، الأمر الذي يمكن أن يفسِّر خضوعهم لحكم مختلف الأقوام(٣).

ونظرًا لشغفها بتنوع التقاليد الروحية في بلاد الرافدين، راحت السيدة "دراور" ترصد هذه التقاليد وتدرسها في العراق الحديث عبر النصف الأول من القرن العشرين. تطيل هذه المرتحلة التأمل في طبيعة استجابة سُكان بيئة الرافدين لأنواع المؤثرات الوافدة، خاصة الروحية والثقافية منها، لأن هذه البلاد كانت بحق بيئة مثالية للتفاعلات الثقافية، فخدمت عبر العصور، فضاءً "مشجعًا لتشكيل الجدالات والتأملات الدينية على نحو قد لا تنافسها فيه أية بلاد أخرى في العالم القديم" (٤)، حسب رأي الباحث "موجان مؤمن Mojan Momen". يلقي هذا الرأي الضوء على ما عناه الباحث "تاكر W. F. Tucker" عندما كتب عن "سيولة الحدود الدينية"(٥) في العراق" " إنها أعباء التاريخ والهجرات والموارد الطبيعية الغزيرة من خيرات هذه الأرض الخصبة المعطاء هي التي جعلت بلاد بابل أرضًا مؤائمة لنمو المنظورات الدينية المتنوعة التي توفِّق بين الثقافات والعبادات القديمة من ناحية، وبين الأفكار التي وفدت من الحضارات العريقة للصين عبر فلاسفة الفيدك الهنود؛ هي أفكار أحيت إيمان الإنسان بخلود الروح، موحية بأصل الروح المنبثق من الكينونة الإلهية، لذا تجدها قد تشبثت بأرواح الأسلاف الطيبة". (٦)

يشكِّل مزيج المعتقدات والتيقنات والغيبيات المكونات الجوهرية للدين المندائي الذي يتتبع بعض الباحثين عناصره المتنوعة إلى أصول بابلية ويهودية وفينيقية (٧). لذا فإن هذا الدين الذي يُفترض بأنه دين تركيبي/توفيقي، يبقى عصيًّا على التحديد والتعريف والتصنيف الدقيق، حتى عندما يجرِّب العارفون من المندائيين أنفسهم ذلك.

يُعرف المندائيون في جنوب حوض الرافدين باسم "الصبة" (٨) (في العراق وإيران). وللوهلة الأولى يوحي المندائيون للدارس بأنهم من مسيحيِّ العمادة Baptists، نظرًا لمثابرتهم على ممارسة طقوس التعميد التي تشكِّل سِرًّا مُقدَّسًا من أسرار حياتهم الدينية ونقائهم الجسدي والروحي.

إن العمادات التي تُؤدَّى في المناسبات الدينية والاجتماعية على أيدي كهنتهم، تلك العمادات المعروفة في لغتهم الآرامية باسم "مسباتا" masbattah (٩) إنما تقوم على ارتماس الأفراد من قمة الرأس حتى أخمص القدمين في المياه "الحيَّة"، بمعنى المياه الجارية الطبيعية، تحت إشراف أحد الكهنة، لذا فإنها توثِّق وتؤكِّد الأصل والجوهر الرافديني لهذا الإيمان الديني الذي لا يمكن أن يبقى إيمانًا حيًّا بدون المياه الجارية، نظرًا لارتهان العمادات الدينية بها. هذا ما يفسِّر اختيار المندائيين لمساكنهم بالقرب من الأنهار والسواقي وعلى حافات الأهوار والبحيرات وسواها من المسطحات المائية الطبيعية. هكذا استحال الماء واستخداماته الدينية عنصرًا

جوهريًا للعمادات الدينية التي تجري في المناسبات الاجتماعية كالولادات والزيجات والتوبات من الخطيئة، أو لمجرد التنقية مما قد يكون لاث الإنسان في حياته من الأفعال الشريرة.



هذا ماجعل الباحثين والمؤرخين يذهبون إلى أن المندائيين إنما هم مسيحيو القديس يحيى المعمدان(١٠) Saint John the Babtist كما أشرنا أعلاه، وهي قناعة ليست ببعيدة المنال، باعتبار تقديسهم لـ"يحيى" الذي يُعرف في ثقافتنا العربية باسم "يحيى بن زكريا" أو "يوحنا المعمدان"(١١)، فهم يجلونه مُعلمًا روحيًا عظيمًا.

لقد لاحظ "ابن النديم" (المتوفي سنة ٩٩٥م) هيمنة طقوس العمادة والارتماس بالماء الحيِّ لدى المندائيين، فابتدع واحدًا من أدقِّ العناوين لإطلاقها عليهم، فأسماهم "المُغْتسِلة". لقد حاول ابن النديم

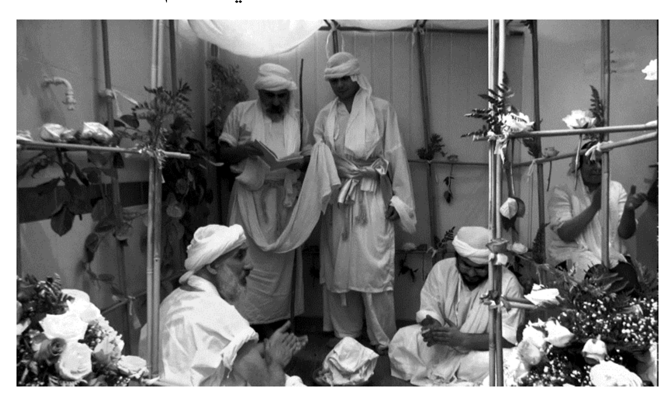
أن يعكس مركزية هذا الطقس في حياتهم الروحية[١٢]، من خلال هذه التسمية.

وعلى سبيل حلِّ لغز الأصول، فقد حوَّل بعض الباحثين من القدماء والمحدثين معضلة الأصول إلى معضلة أكثر إرباكًا وغيمية بسبب غياب الأدلة العلمية، إذ ذهب بعضهم إلى أنهم من بقايا يهود السبي البابلي من هؤلاء الذين رفضوا العودة إلى فلسطين، الأمر الذي زاد من تعقيد وتشعب سؤال الأصول الخاص بالمندائية والمندائيين، فمكثوا في بلاد الرافدين بعدما أتاح الإمبراطور الفارسي "سايروس" لهم هذا الخيار.

وليس بأقل أهمية مما سبق ذكره، وبقدر تعلق الأمر بالإشارة إلى العناصر اليهودية الراسبة في المندائية، بوصفها إناءً واسعًا يحتوي مزيجًا من هذه العناصر إضافة إلى سواها من العناصر الدينية المجوسية والزرادشتية[١٣]، ينبغي على المرء أن يلاحظ وجود المندائية بداخل بيئة سُكانية أوسع يغلب على سكانها اعتناق الإسلام في كل من العراق وإيران. لذا تتبع المندائيون متوازيات معينة مع المسلمين الشيعة خاصة، على سبيل تعايشهم مع التشيع، ومع سواه من "أديان المضطهدين" [١٤] ، مع إشارة خاصة إلى العقيدة التي تشترك بها جميع هذه الأديان، هي عقيدة الإيمان بشكل من أشكال المهدوية، المستوحاة عند المندائيين من علم تنجيمي خاص بهم فقط، علم مكَّنهم من تشكيل تقويم كوني ابتدعه شيوخهم وكبار كهنتهم[١٥]. وبحسب رجل مندائي عارف، يتجسَّد إيمان

المندائيين بمخلص شبه مهدوي في تأملهم ظهور منقذ، يشبه الإمام المهدي الذي ينتظره المسلمون الشيعة إلى حدٍّ كبير. هذا المنتظر المندائي هو أصلاً راعٍ اسمه "سنيجر" (عُرف بالشِعر والحكمة)، رجل فريد البصيرة لا يشار إليه إلا مع الملحمة النبوئية التي ألَّفها قبل أن تحضره المنية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

يؤمن المندائيون أن تاريخ النوع الآدمي إنما يتكون من أربع حِقب رئيسة، كل واحدة منها تنتهي بانقراض النوع الآدمي، باستثناء زوج، هم رجل وامرأة، أي آدم وحواء. وبدورهما يدشِّنان الدورة التاريخية العظمى التالية من جديد: فقبل آدم الذي يحمل أهمية خاصة في معتقدات المندائيين بقدر تعلق الأمر بنسبهم، كان هناك "رود" Rud و "رام" Ram (رمزا السماء والماء)، أي الفردان الوحيدان اللذان بقيا حيَّين من الدمار المطلق الذي حدث قبل حوالي ٢١٦٠٠٠ سنة (بعد إتمام خلقهما) (١٦). أما بالنسبة للحِقب الأخرى، فإن تفاصيلها تبقى طيَّ الكتمان والغموض في صدور الكهنة، خاصة بالنسبة لغير معتنقي دينهم.



وبغض النظر عن لُغتهم المندائية وثقافتهم المكتسبة في جُلِّ عناصرها من بيئتهم الاجتماعية، يخص المندائيون أنفسهم باستثنائية كونهم عنصرًا بشريًا مستقلاً أو أُمة متفردة، تأسيسًا على دينهم (وهذا، على أغلب الظن، هو الذي يفرض عليهم الامتناع عن التزاوج من خارج جماعتهم الدينية المغلقة إثنيًا، خاصة وأنهم يتتبعون انحدارهم الوراثي إلى "آدم" مندائي خاص بهم، غير "آدم" الذي نعرفه في تقاليدنا الدينية السائدة: فينتسب المندائيون إلى آدم كان قد جاء من أرض سرانديب Sarandib، أي من جزيرة سيلان، ومن ثم إلى شجرة الأسلاف المتكونة من "قابيل" و"شيت" و"أنوش" و"أنوس" و"نوح" و"شام" و"رام"، نزولاً حتى يحيى المعمدان، أي "يهيى"، حسب لهجتهم[١٧]. وبطبيعة الحال، ليس من اليسير التحقق من حجم الحقيقة وحجم الخيال اللذين يكتنفان شجرة الأنساب هذه، إلا أنه من المهم التوكيد على ما يذهب إليه مؤرخو اللغات في أن لُغتهم الأصل هي الآرامية المتفرعة من شجرة اللغات السامية التي تضم إضافة للغتهم، اللغات العربية والعبرية والسريانية والآشورية، من بين لُغات سامية أخرى. لاينبغي لهذه الملاحظة أن تعمي المرء عن حقيقة مفادها أن المندائيين يستعملون لُغة عبادات خاصة، قوامها نظام معقَّد من الاستعارات والتشبيهات والرموز والرسوم والمجردات المشخصنة، إضافة إلى لهجتهم المندائية الخاصة المتشعبة من اللغة الآرامية[١٨]. ويتجسد نظام الاتصال، نصف اللفظي ونصف الصوري عندهم على نحو مؤثر

فيما يسمى بـ"الدواوين"، وهي لفائف مقدسة مخطوطة من البردي قد تمتد لأمتار، محفوظة عند أعلى كهنتهم مرتبة نظرًا لعدها كنوزًا دينية لا تقدَّر بثمن.

يشكِّل قرن الدين بالعنصر الإثني لدى المندائيين واحدًا من أهم المعضلات التي تواجه باحث المندائيات، خاصة عندما يلاحظ عنايتهم الفائقة بالحفاظ على نقاء عنصرهم وتشبثهم القوي بفكرة أنهم جماعة دينية/إثنية متفردة، جماعة كانت قد سبقت اليهودية وسواها من أديان الشرق الأوسط، وهي مسألة تثير المزيد من علامات الاستفهام حيال ما يدعون الانتساب إليه من شجرة نسب قديمة للغاية تعود إلى جدِّهم الكبير (نوح) على أقل تقدير. زدعلى ذلك إيمانهم بأن المصريين القدماء الذين غرقوا في البحر الأحمر -كما تذكر الكتب المقدسة - إنما كانوا من المندائيين.

يمكن لمثل هذه القناعات أن تعين المرء على حلِّ لغز تقديسهم يوحنا المعمدان (يحيى)، بوصفه رجلاً مندائيًا قام بتعميد السيد المسيح (ع) وائتمانه بأسس الدين القويم، لولا عدم وفاء الأخير، كما يعتقدون، بوصفه لم يكن سوى مسيحًا مزيفًا ("ميشا كدبا" بلغتهم). هم يعتقدون بأن يسوع المسيح قد حرَّف تعاليم يوحنا المعمدان. وتنطبق هذه القناعة المندائية كذلك على أنبياء آخرين مثل إبراهيم الخليل وموسى، حسب معتقداتهم.

ينطوي تتبع الدين المندائي إلى حقبات بهذه الدرجة من القِدم على تعميق الغموض المتناهي الأبعاد لتاريخ المندائية الديني الذي

كان قد نما في موقع جغرافي يتيح مدى واسع من المؤثرات للأقوام التي كانت تحتضن أديانًا وعقائدَ متنوعة، وهي أقوام كانت قد قطنت أقاليم بعيدة ثم هاجرت إلى حوض الرافدين، كما أشرنا إلى ذلك. لذا يصعب على المرء فكَّ هذا التعقيد من الخيوط المتداخلة والمتشابكة لفلسفة دينية تواشج بين جميع هذه العناصر المتنوعة على سبيل الخروج بفكرة مكتملة قابلة للفهم وللإدراك حول هذا التقليد الديني الفريد الذي غالبًا ما لا يحظى بنظرة واقعية حتى من قبل أتباعه أحيانًا، باستثناء كهنته المخولين الذين يحتفظون بمفاتيح أسرار الدين المقدسة بعناية فائقة، درجة أنهم يحفظون بعضها عن ظهر قلب، خشية تسربها خارج دائرتهم الدينية المحكمة الإغلاق.

وهكذا تبقى الطقوس والعبادات الدينية مغمورة وتبدو للناظر الخارجي وكأنها اعتباطية أو غير منظَّمة، فهي في حفظ دائرة مغلقة من العارفين من الكهنة، دائرة غدت صغيرة الآن للغاية قوامها الراسخون بالعلم منهم فقط. إن ما يشاهده غير المندائيين من هذه الممارسات والطقوس لا يزيد عن رأس جبل الجليد المنظور الذي يخفي حجمًا هائلاً من المعارف المنتظمة في طبقات موصولة بطبقات الهرم الكهنوتي تدرجًا من الأدنى إلى الأعلى. وكما يفعل أهل الحق، تحافظ المندائية بعناية على خصوصية مؤسسة على المعرفة الدينية، الأمر الذي يفسِّر عناية الكهنة بالحفاظ على مسافة بينية تفصل بينهم وبين عامة المندائيين، ناهيك عن عامة الناس.



إذا ما رغب الرجل (غير مسموح للمرأة) المندائي بتسلق الهرم الكهنوتي، فان عليه أن يدرك مقدمًا أنه ذاهب إلى مهمة ارتقاء ما يلي من المراتب المعرفية، وهي (من الأدنى إلى الأعلى):

(١) مرتبة "الحلالي" أو "السوادية" أي العامة.

(٢) مرتبة "التورميذة" أو "الشورية" أي (التلمذة، وتعني أن صاحبها قد تهيأ الآن لدراسة الدين).

(٣) مرتبة "الكنزبرا" (أي الكاهن الذي يحيط بكتابهم المقدس المعروف بالـ(كنزا ربّا) الذي يعد نصهم المقدس الرئيس.

(٤) ثم تأتي مرتبة "الرشما" (أي رئيس الأمة).

(٥) وأخيرًا مرتبة "الرباني" (وهي الأسمى على نحو الإطلاق). ويعتقد المندائيون أن أحدًا لم يرتقِ إليها قط عبر التاريخ سوى "نوح".

يرينا الترتيب التدريجي أعلاه أن جميع الرجال المندائيين يعدون مرشحين مؤمنين، مسموح لهم بدخول السلك الكهنوتي، بغض

النظر عن الخط الفاصل بين الـ"المندائيا"، أو عامة المندائيين، وبين الكهنة الذين يُعدّون طبقة أعلى من البشر، نظرًا لما يضمونه من معارف روحية.

يتلخص المنظور المندائي للإله في أنه كينونة عظمى واحدة، كينونة كمنت وراء ما يُسمى بـ"السبب الأول". لذا تعكس الأسماء المندائية للذات الإلهية هذا المنظور، ومنها: "ملكا دا نورا" (بمعنى، ملك الضياء) و "مارا دربوثا" (بمعنى، ملك العظمة) و"مانا ربّا" (بمعنى، الروح العظيم) [١٩]. يرجع التيقن من وجود هذه الذات الإلهية مما ينبثق منها أثيريًا ("أوثري uthri"، بلغتهم) أو ماديًا، من موجودات وعوالم[٢٠]، وهي جميعًا تتولد، على أغلب الاعتقاد، من عنصريِّ الماء والضياء اللذين أبدعهما "خالق" كان، هو الآخر، قد انبثق من غياهب أعماق الكينونة العظمى التي مرَّ ذكرها[٢١].

يرتكن جوهر الدين المندائي على تقديس "مبدأ الحياة"، ذلك المبدأ النابع أصلاً من تفاعل الضياء ("نهورا"، بلغتهم) والماء ("ياردنا"، بلغتهم)؛ وهما، كما يعتقد الباحثون، العنصران الأساس في مبدأ الخصب البابلي القديم، المسمى "تموز"، الذي تطور في بلاد الرافدين العظيمين، دجلة والفرات. وهما النهران اللذان شكلا، من الناحية الواقعية، تاريخ تلك الأرض وتواريخ الأقوام التي مرَّت بها أو استقرت عليها لبناء حضارات عظيمة، تركت للإنسانية إرثًا لا يقدر بثمن: فعلى ضفاف أنهر بلاد بابل دشنت الحضارة عصرها

الأول الذي نتج عنه الصراع الملحمي بين الإنسان الرافديني المستقر وبين قوى المياه المدمرة عبر طوفاناتها السنوية من فوائض مياه هذين النهرين التوأمين. لقد لخص المهندس والباحث التوراتي العراقي الكبير المرحوم الدكتور أحمد نسيم سوسة، تاريخ بلاد الرافدين في قصة هذا الصراع الملحمي بين الإنسان والماء، أي في تاريخ الري[٢٢]. في الدين المندائي لايوجد ثمة تناقض بين الإنسان والطوفان، كما قد يوحي ما ذكر في أعلاه حول الفيضانات فثمة تناغم مطلق بين الاثنين، أي بين الإنسان والماء. من هنا نبع التشبث المندائي بالماء الحي الجاري، أي الماء الحُرّ، غير المتاح في أي نوع من أنواع الآنية أو الأحواض المغلقة. ينطبق هذا الوصف فقط على المياه في الطبيعة، فحالما يوضع الماء في إناء مهما كان حجمه، أو أنه يغلى، فانه يفقد عنصر الحياة المكنون فيه، ليغدو ماءً ميتًا، أي ماء لا يصلح لأداء طقوس العمادة المرتكنة إلى فكرة ارتماس الإنسان في الماء الحي بوصفه وضوءًا روحيًا تنقويًا.



هذا هو ما يفسِّر حرص المندائيين على الاستقرار في مساكن تطلُّ على الأنهار أو الأهوار، أي على مصادر المياه الحيَّة. لذا لا يمكن للمرء أن يفترض وجود بدو من المندائيين قط.

لأن الماء (ياردنا) يمنح الحياة والخصب، فإن الضياء (نهورا)، من ناحية أخرى، يمنح الحيوية والصحة ونسغ الحياة والفضيلة والحكمة. لذا فإن تآصر الماء والضياء، الضروري لخلق الحياة من وجهة النظر البايولوجية إنما يتجسد روحيًا في تقليد التعميد الروحي الذي لم يزل متبعًا منذ دهور غائرة في القِدم. وللمرء أن يلاحظ، في هذا السياق، التشابه اللفظي، للغتهم السامية بذات المفردات المكافئة في اللغة العربية التي تنتمي، من وجهة نظر علم اللسانيات التاريخي، إلى ذات الشجرة اللغوية: فالنهر الجاري يسمى بالمندائية (نهرا)، في العربية يسمى (نهر)؛ وبينما يسمي المندائيون ضياء النهار بلفظ (نهورا)، تطلق العرب عليه لفظ (نهار)[٢٣].

وباعتبار ثنائية الماء/الضياء يمكن للمرء أن يرصد آثار المبدأ الثنوي المضموم طي علم الفلك المندائي، وهو المبدأ الذي يعده بعض الباحثين دليلاً على ما يذهبون إليه في تتبع عناصر دينية مندائية للديانات الثنوية السابقة للديانات التوحيدية. يبث هذا المبدأ الحيوية في النظام الروحي المندائي، حسب رأي هؤلاء الباحثين، الذين يحيلون هذا المبدأ إلى الإيمان بوجود كائن بشري نمطي عتيق هو الذي أنتج شاكلته على "أزواج"[٢٣]، في سبيل تواصل

النوع الآدمي عبر التكاثر، حسب منطق ثنوي وعلى نحو ثنائيات: الرجل/المرأة، يمين/يسار، ضياء/ظلام، أبيض/أسود، وعلى نحو متوازٍ صعودًا حتى بلوغ ما يعتقدون أنه "عالم الأفكار" السامي[٢٤]. أما الكينونة العظمى التي سبق ذكرها، فانها موطن الروح ومآلها الأخير، لأن وجود الروح في هذا العالم لا يزيد عن وجود معذب في حبس، فالأرواح تبقى تحوم في فضاءات منافيها عندما تكون بعيدة عن موطنها، أي عن تلك الكينونة العظمى.

وتأسيسًا على هذا المعتقد الذي يفيد بأن الأرواح إنما هي هنا في منفى، يغدو من المنطقي أن يؤمن المرء بأنها (أي الأرواح) أبدية: فحسب عقائدهم، تنتقل أرواح البشر حال وفاتهم إما إلى منافٍ أخرى في كواكب ونجوم بعيدة؛ أو أنها تنطلق نحو "عالم الأنوار" حيث تحيا ولادة جديدة كي تسمو فوق عالم المادة، الدوني الذي يهيمن عليه "بتاهل"[٢٥].

يدلُّ ما مرَّ ذكره من العقائد المندائية على خطأ ما يعتقده جيرانهم من أتباع الأديان الأخرى بأن المندائيين يعبدون النجوم والأجرام السماوية. والأصح هو أن المندائيين يؤمنون أن هذه الأجرام الكونية تضم "مبادئ الحياة" تحت هيمنة "ملكاد نورا"، أي ملك الضياء الذي سبق ذكره في سياق مناقشة عقائدهم في الربوبية. كما أنهم يؤمنون أن هذه الأجرام الكونية تؤثر على أرواح الناس وعلى حياتهم في طور الوجود الدنيوي. من هذا التراث العتيق المتواصل مع مراقبة الفضاء الخارجي، ينبع تفوق كهنتهم في علوم التنجيم

وفنون الغيب واستعمالات الأبراج، تلك المعارف التي توارثها الكهنة على نحو تسلسلي جيلي من قديم التراث الروحي الكلداني. لذا يعمد بعض هؤلاء الكهنة في أزمنة الفقر والعوز، الى إستثمار هذه الفنون والمعارف عبر صنع الأحجية والطلاسم أو القيام بالحسابات الفلكية لعامة الناس مقابل بدائل نقدية[٢٦]. تتواشج عناية الكهنة بالأجرام السماوية مع الوظائف والأدوار الاجتماعية التي يضطلعون بها على نحو تقليدي ثابت ومتواصل بوصفهم، كهنة وحكماء وفتاحي فأل، مسلحين ببصائر نبوئية نافذة مستوحاة من قدراتهم على قراءة السماوات وحركات النجوم وحساب الأبراج الفلكية بحثًا عن النبوءة والخبيء من علامات السوء أو علامات الخير. يعتقد الباحثون أن هذه الملكة إنما يتوراثها الكهنة أبًا عن جد على نحو تسلسل جيلي متوالي.

وكما لاحظنا في أعلاه، تنبع أهمية الأجرام الكونية في الديانة المندائية من أنها محطات انتقالية لأرواح البشر بعد وفاتهم عبر طريقهم الكونية الطويلة إلى "عالم الأنوار"، أي الفردوس المندائي الأبدي. وللمرء أن يفترض بشيء من التيقن أن إيمان المندائيين بأبدية الروح وبالبون الأثيري المهول بين الدنيا والآخرة، يتجلى في طقوس الغذاء والنذور التي يقدمونها لأرواح الموتى، خاصة من ذوي القربى، لأنهم يؤمنون أن الموتى إنما يستفيدون من الوجبات الغذائية التي يتناولها الأحياء في ذكراهم بعد تلاوة الأسماء الدينية للموتى، وهي الأسماء التي تمنح للأفراد حال

ولادتهم اعتمادًا على التنجيم وعلامات الأبراج، أي أسماء "الملواشا" الدينية التي تختلف عن الأسماء التي تطلق عليهم ويعرفون بها في الحياة الاجتماعية العامة. على الرغم من أنها تتواشج مع تقاليد نذور أقدم الأقوام الرافدينية والإيرانية، كالسومريين والكلدانيين والبارثيين، فإن تقليد نذور القرابين المندائية المكرسة للموتى غدت ظاهرة شائعة بين المسلمين من جيرانهم، خاصة بين الشيعة في العراق وإيران. وقد حلَّل الباحث حامد دباشي Dabashi هذا الطقس في المجتمعات الشيعية على نحو مختلف، ولكنه يستحق الملاحظة في كتابه الموسوم (التشيع: دين احتجاج)، مع إشارة خاصة إلى الأطعمة التي تقدم للمؤمنين في العاشر من محرم، ذكرى استشهاد الحسين بن علي (رض) [٢٧]. وهكذا تغدو وجبات نذور القربان عند المندائيين مناسبات اجتماعية بهيجة لأنها تجمع الأحياء بالأعزاء من الموتى، وكما لاحظت السيدة "دراور" بأنها " تتم بعد مناداتهم وتجمعهم حول الوجبات المقدسة باعلان أسمائهم أثناء الطقس الديني، حيث ينعم الموتى بحيوية ما عبر نسخهم الروحية المتمثلة في الغذاء الطقسي. لذا يبارك الموتى الأحياء"[٢٨].

ويؤمن المندائيون أن روح الإنسان عندما يتوفى، تتحرر من أسر الوجود المادي الدوني ليحيا ولادة جديدة، ولكن في كينونية روحية هذه المرة من أجل التحليق عاليًا في فضاء السماوات ليسموا فوق عالم المادة وذلك بمساعدة "الأرواح الوفية" التي

ترشده عبر تلك الرحلة اللازمنية الطويلة نحو عالم الأنوار، أي نحو الفردوس الأبدي.

لا ينطبق هذا التسامي التلقائي على الأرواح الضالة أو غير المرتاحة لأنها بحاجة لطقوس خاصة لإراحتها وإطلاقها على نحو ما يحدث للأرواح المباركة. ونظرًا لانتفاء البعد الزمني الأرضي الذي نألفه عبر الملكوت الروحي الذي ينطلق إليه الروح، يغدو من الصعب على المرء أن يدرك أو حتى أن يتخيل تلك الرحلة الأثيرية نحو الآخرة، بالرغم من أن المندائيين يعتقدون أن روح الميت تبقى حبيسة الأرض طوال خمسة وأربعين يومًا بعد وفاته على سبيل التهيئة للرحلة الكونية التي تبدأ في اليوم السادس والأربعين. وهكذا يتوجه الروح إلى النجم القطبي، برغم ضرورة تنقيته عبر تلك الرحلة الأثيرية من أجل تخليصه من براثن الخطيئة وأعباء الأفعال الشريرة، وذلك عبر "محطات" تنقية على طريق هذه الرحلة، المسماة الـ"موتراتا"، حسب لُغتهم الدينية[٢٩].



يبدو أنه من الخطأ أن يتتبع المرء اسم هذا الدين، "المندائية" إلى اللفظ "مندي"، كما يفعل بعض المهتمين، خطأً، ذلك أن الـ"مندي" لا يزيد عن كوخ العبادة الصغير الذي يبنيه المندائيون على ضفاف الأنهار لأداء الطقوس والقرابين الدينية، فالأصح إنما يتمثل في تتبع اسم هذا الدين إلى اللفظ "ماندا" الذي يعني "المعرفة" في اللغة الآرامية (٣٠)، بوصفه جِذر اسم الدين وجذر جميع الأسماء المشابهة المشتقة من ذات المصدر اللفظي، ومنها اسم كوخ العبادة أعلاه "المندي"، من بين ألفاظ أخرى تُشتق من ذات اللفظ.

بيد أن الأهم في سياق هذه المناقشة إنما هو الاستنتاج الذي يتشبث به بعض الباحثين، ومفاده أن صعوبة فهم الدين المندائي من قِبَل غير المندائيين إنما تنبع من افتراضهم أن هذا الدين هو "دين سِرِّي". والحق، فإن للمرء أن ينحى بمسؤولية هذا الافتراض الخاطئ إلى الكهنة المندائيين بوصفهم الأفراد المؤتمنين على حفظ أكثر جوانب هذا الدين خفاء، ومن ضمن ذلك كتمانهم للجداول الفلكية والرقمية والرموز والمعلومات التي تبقى في الحفظ والصون فلا يُسمح بالإطلاع عليها إلا من قِبَل أفراد دائرة ضيقة من رجال الدين الذين يتناقلون هذه الجوانب فيما بينهم أو لورثتهم لفظيًا فقط، تحاشيًا للتسريب. وأغلب الظن أن علة ذلك هي الخشية من سوء الفهم أو التندر المتوقعين من قبل غير المندائيين، بل ومن المندائيين أنفسهم في أحيان. إن دوافع كتمان الكهنة لهذه الجوانب

من التقليد الديني المندائي بعيدًا عن عامة المندائيين (السوادية) وسواهم من أتباع الديانات الأخرى لا تتعدى التشبث بالخصوصية، فلا يقصد بها إخفاء شيء سلبي أو ضار قط. إنها السرية التي تشبه كتمان المرء لشؤونه وشؤون عائلته بعيدًا عن عبث أو تدخل الغرباء، بوصفها شؤونًا خاصة لا تعني الآخرين. ومن ناحية أخرى، تمكن إحالة عناية الكهنة بعدم البوح ببعض خصوصيات دينهم إلى الأدوار الدينية التي يضطلعون بها في مجتمع المندائيين الصغير، إبتداءً من الولادة حتى الموت، وعبر المحطات الرئيسة في حياة الإنسان كالزواج والمرض والتنقيات بالعمادة، من بين محطات مهمة أخرى، فهي من اسرار المهنة، لاريب.

أما بالنسبة للفنون "السرية" التي يفترض البعض ممارستها من قبل الكهنة، كقراءة الفأل والتنبوء بالمستقبل والحسابات الفلكية، فإنها جميعًا تندرج في فضاء الماورائيات التي لا ينبغي للعامة من المندائيين أو غير المندائيين التدخل بها.

وليس بأقل أهمية مما سبق ذكره، وعلى سبيل تعزيز احتكار الكهنة لإدارة الطقوس الدينية، فيكمن في اللغة المستعملة في مثل هذه الطقوس، وهي لغة غير مفهومة من قبل العامة من المندائيين أنفسهم، لأنهم عادة ما يستعملون اللغة الدارجة للأقوام المحيطين بهم كالعربية في العراق والفارسية في إيران، أو كلاهما.

إن التحفظ الذي يحيط به الكهنة عباداتهم ينبع من الرغبة في الحفاظ على مسافة من نوع ما تمتد بين عالم الروح وعالم المادة

اليومي: فحتى عامة المندائيين لا ينبغي أن يتجاوزوا حدودًا معينة نحو الجوانب الداخلية أو الباطنية للدين لأنهم ليسوا على نفس الدرجة من الوعي بأهمية الحفاظ على هذه المسافة بين الأعماق الروحية والآخر، الأمر الذي قد يقود الغرباء إلى الانتقاص من إيمانهم الديني عبر إشاعة مبادئه لغير المندائيين، إذ يمكن لذلك أن يُسيء أو يقلِّل من شأن دينهم. وهكذا تبقى النخبة الكهنوتية دائرة خاصة مغلقة تكمن على المعارف الروحية التي تسمى الـ"ناسورايا" في لغتهم، نظرًا لأن محاولة الإمساك بمثل هذه المعارف إنما تنطوي على محاولة تحدي البون الذي لا يمكن جسره بين السماوي والأرضي، أي بين فضاء النخبة الكهنوتية وبين المندائيين العاديين، بالرغم من أن هذا البون لا ينبغي أن يساء تصويره بوصفه تعزيز لاحتكار الكهنة أو احتكار عدد محدود من الأُسر المندائية الكهنوتية المعروفة، فهذا سوء فهم وارد.



تتجلى المسافة التي تفصل بين العامة والكهنة فيما سبق ذكره حول "الدواوين"، أي النصوص الدينية المحبرة على لفائف مستطيلة من البردي التي يحتفظ بها الكهنة فقط، ككنوز. قد تمتد هذه اللفائف الثمينة لعشرة أمتار أو أكثر طولاً، وتحتوي على كتابات غامضة يصعب فك

شفراتها، كما تحتوي على رموز وقصص مصوَّرة، زيادة على تعليقات أجيال متتالية من الكهنة الذين عاشوا عَبْر الحِقب التاريخية المتتالية التي مرَّ بها الدين المندائي منذ أزمنة غابرة بالقدم. لذا فإن الدواوين تضعنا أمام تعقيد آخر، قوامه التمييز بين ما هو نصٌّ أصلي وما هو إضافة كهنوتية على النص المقدس، إضافة كان قد وضعها أحد الكهنة العظماء عبر العصور إسهامًا في الوثيقة الدينية. زد على ذلك تعقيد آخر يتلخص في عد جميع ما خُطَّ على هذه اللفائف (الدواوين) المخطوطة نصوصًا مقدسة، إضافة إلى كتبهم المقدسة كـ"كنزا ربّا".

إن اعتماد الكهنة على الذاكرة لتداول بعض النصوص الدينية حفاظًا عليها من التسرب لأيادٍ غير أمينة، إنما يعاكس الافتراض الذي يفيد بأن هذه النصوص محفوظة ومحروسة من قبل قوى غيبية، وهي ذات القوى المناط بها الحفاظ على الجنس المندائي في الدنيا والآخرة. ولكن على الرغم من أنه من العسير أو المستحيل فك رموز هذه المخطوطات، فإنها تبقى محرَّمة على غير المندائيين وربما حتى على المندائيين أنفسهم إذا لم ينتموا لنخبة الكهنة. لذا، فإن هذه الكنوز المقدسة، تدلنا على وجود "أرستقراطية كهنوتية"، إذ أن على الكاهن أن يؤدي القسم بأن يحافظ على الوثائق الدينية العتيقة، شرطًا مسبقًا لدخوله هذا السلك.

على الرغم من أن المندائيين المتدينين يحرِّمون مشاركة أتباع الأديان الأخرى نفس موائد الطعام، فقد أخذ هذا التحريم بالتلاشي

اليوم تحت وطأة العولمة وعوامل الاختلاط والمؤانسة بين الأقوام والثقافات المختلفة، خاصة بعد أن دخل المندائيون في الوظائف المدنية الحكومية العامة، وفي الخدمة العسكرية. وقد عزَّزت ظاهرة الهجرة الجماعية من أوطانهم الأصل عبر أسفل وادي الرافدين نحو الدول الأجنبية بحثًا عن السلام والأمن اللذين افتقدوهما في هذه الأوطان لأسباب عدم الاستقرار السياسي وتنامي ظواهر التعصب الديني والطائفي وتوسع الدائرة الاجتماعية سريعة التغير، نقول إنها عزَّزت مشاركة المندائيين سواهم الخبز وتعمدهم هدم الجدران الفاصلة التي فرضوها سابقًا حول أنفسهم، ففي عالم تسوده مطاعم الوجبات السريعة، يفوز قانون الضرورة، بطبيعة الحال. ومع هذا، يبقى الكهنة متمسكين بخصوصية الأكل على نحو محكم.

لا تتوفر معلومات دقيقة عن تفاصيل تأليف وتأصيل الكتابات المندائية المقدسة وأزمنة وضعها، فالحقيقة الوحيدة المتاحة للجميع هي كتاب الـ(كنزا ربّا)، أي كتاب (الكنز العظيم)، وهو واحد من أقدس نصوصهم الدينية، الأمر الذي يفسِّر تعمد أساطين الطائفة المندائية تعريبه مؤخرًا وربما تمَّت ترجمته إلى لغات أخرى سوى العربية. عندما يستذكر المرء حجوم التعليقات التي كان قد أضافها الكهنة إلى هذه النصوص المقدسة عبر العصور والحِقب فإنه يقترب من الظفر بفهم الظروف التي عاصرت هذه الإضافات، زيادة على ما تعكسه من أمزجة هؤلاء الكهنة الذين خطُّوها عَبْر

الحِقب، مخاوفهم وآمالهم، أي الظروف النفسية التي سادت إبان قيامهم بخطِّ الإضافات وبضمن المهادات العدائية العامة التي غالبًا ما رُدَّت إلى إساءات الفهم وإساءات التمثيل التي كان الدين المندائي ضحيتها بسبب تعصب الآخرين وانحيازهم وجهلهم في أحيانٍ كثيرة[٣٣]. لذا يغدو واضحًا أن هذه النصوص المقدسة لم تمت لأنها بقيت تنمو مع مرور الحِقب والأزمان على أيدي الكهنة ممن يخطون على حواشيها الكثير من شذرات فكرهم وتوهجات خيالهم. هي نصوص حيَّة لأنها تنمو على أساس تطوري متواصل كالكائن الحي.

وللمرء أن يلاحظ في هذا السياق أن المجتمع المندائي هو مجتمع مغلق عنصريًا، لأن دينهم لا يسمح لهم بالاقتران بأزواج من غير ديانتهم: فلو اقترن مندائي أو مندائية بشخص من غير دينه، فإنه يُعدُّ فاقدًا للصفة المندائية، فيستحق التعامل معه أو معها منبوذًا أو منبوذة من قبل "الأمة المندائية". يبدو هذا الانغلاق الديني خانقًا بالنسبة لمستقبل طائفتهم ودينهم، خاصة وأنه دين غير تبشيري. المندائيون قانعون بما هم عليه على الرغم من أن أعدادهم تتقلص على نحو مضطرد بسبب عدم ضم "الأجانب" إلى صفوفهم. تنطوي هذه الصفة الانعزالية على ما تسهل ما لاحظته في أنهم لا يطورون طموحات سياسية، فكل ما يرنون إليه لا يزيد عن الحرية بالإيمان الروحي وبممارسة طقوسهم دون تدخل أو مضايقة من أحد.

طالما كمنت هذه الصفة على ما يلاحظه غير المندائيين من مسلمين أو مسيحيين من أن المندائيين يمتازون بالمسالمة والميل إلى التناغم والتعاون مع جيرانهم من أتباع الأديان الأخرى. هم معروفون بسلوكياتهم الملتزمة أخلاقيًا، وبطبيعة الحال، بنظافتهم بسبب تكرار ممارسة أكثر طقوسهم العبادية أهمية، أي طقوس الارتماس بالماء الجاري، العمادة أو الـ("المشباتة" أو "المسباته"، بلغتهم).

لذا يجسِّد "صائغو الفضة العماريين" ـ كما أسماهم البريطانيون بُعيد احتلال العراق بداية القرن العشرين ـ مبدأ أن العمل إنما هو شكل من أشكال العبادة، وهو المبدأ الذي تحترمه جميع التقاليد الروحية. هذا التقديس للعمل هو ما يكمن وراء تفوقهم في الصناعات التقليدية والأعمال اليدوية التي تنتج أغلى ما تبدعه يد الإنسان، فظهر منهم الشعراء الكبار والمثقفون والعلماء المعتبرون والعسكريون والتربويون والصاغة والثقاة من أصحاب الحرف والأعمال.



اليزيدية : ذلك الدين المغبون

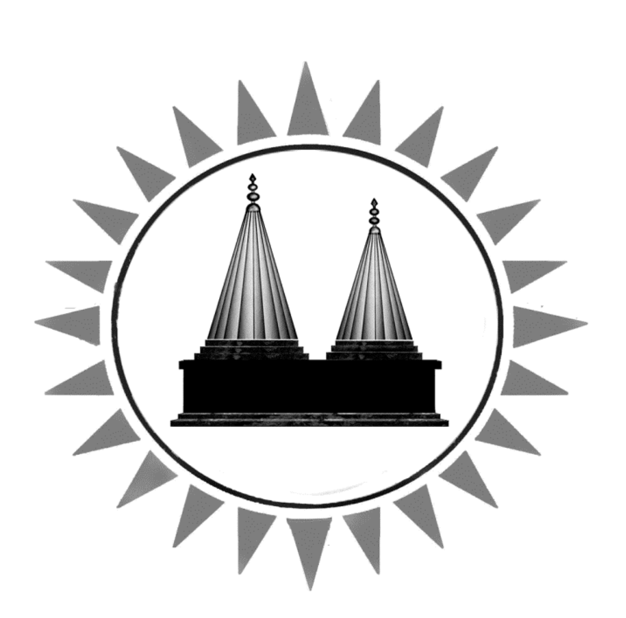
أو هل لنا أن نقول إنها قاعة مرايا، تعكس كل مرآة مقعرة أو محدبة منها في فضائها الباهت، ليس فقط جسمًا حقيقيًا، بل كذلك ظلال هذا الجسم في المرايا الأخرى؛ التي تكرِّر ذات الانعكاسات: حتى يمتلئ اللامحدود بأشكال معتمة وأكثر عتمة؛ فلا يتشكل مشهد واضح حولنا، سوى فوضى عصية على الفهم.

(توماس كارلايل)

إنما الحلم لواحد، ولكن تتمايز التفسيرات.

(صائب)

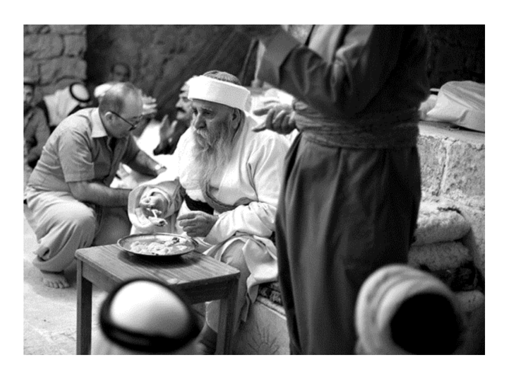
• • • • •



حين حاول أحد الأصدقاء أن يقدِّم لكاتب هذه السطور وصفًا للدين اليزيدي، وبهدف تحقيق عنصر المفاجأة والتشويق بمعلومات غريبة أو غير شائعة حول الفلسفات والعبادات والأديان المغمورة، عمد صاحبي إلى التوقف عند "اليزيدية" لعرض فكرة - وإن كانت مبتسرة وسريعة - عنها على نحو يترك انطباعًا قويًا في النفس على مدى زمني طويل. وحسب وصفه، المتوثب لحث حب الإطلاع والمتابعة لدى مستمعه، بدت اليزيدية وكأنها دين "النقائض"، أو قل: "مضاد الدين" الذي تمَّ تشويهه باعتباره يوصي باحتضان أو فعل كل ما هو مناقض للشائع مما توصي به الأديان الأخرى كالإسلام والمسيحية واليهودية، من بين سواها من الأديان الكبرى. وبطبيعة الحال، ظهر هذا الوصف، كما أُريد له، عجائبيًا بالنسبة للمستمع آنذاك، أي في ستينيات القرن الماضي، الأمر الذي يعني أنه قد حقَّق المرجو له من حث لحب الإطلاع والبحث على سبيل زيادة وتعزيز المعرفة باليزيديين الذين يتركزون سكانيًا في قرى وبلدات منتشرة حوالي مدينة الموصل شمالي العراق، إضافة إلى جماعات متناثرة في دول أخرى كسوريا وتركيا. مذاك، وكاتب هذه الأسطر لا يضيع فرصة لمعرفة جديدة أو إضافية عن هذا الدين وعن معتنقيه.

والحق، فإن أكثر ما قد أثار اهتمامي في تلخيص صاحبي هذا هو ما كان قد أُشيع بين البسطاء من العامة بأنه دين يوصي بعبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الله جل وعلا. وبأنه دين يوصي بعدم العناية بالنظافة الفردية والبيئية، مركزًا على أن اليزيدي يكون

عدائيًا بطبيعته حيال جيرانه من أتباع الأديان الأخرى، بدلاً عن الميل إلى التعايش معهم على نحو سلمي وتعاوني؛ وأن الرجل اليزيدي، إن أراد الزواج، فإنه يعمد إلى خطف العذراء التي يريد الاقتران بها كي يتزوجها دون تجشم عناء الحصول على موافقتها أو موافقة عائلتها. وعلى نحو معاكس لجميع الشرائع المعروفة، يُشاع بأن الفرد اليزيدي يتجنب التعلم والمعرفة ويبتعد عن المدارس والدراسة. خلاصة الوصف هي أن المؤمن اليزيدي يفعل كل ما هو نقيض لما توصي به الأديان الأخرى من فضائل!. لم يتعمد محدثي تشويه اليزيديين قط، وإنما كان، في حقيقة الحال، يعكس الشائع من إساءات فهم وتنميطات شاعت بين الكثير من الناس حول اليزيديين عبر مناطق سكناهم.



ولا يقل غرابة عمَّا مرَّ ذكره هو افتراض محدثي حول مؤسس هذا التقليد الديني، لأنه حسب هذه المعطيات والمتناقضات والمعاكسات، لا يمكن إلا أن يكون دجالاً ذا مواهب استثنائية، فربما كان هو رجل من الظرفاء الذين يميلون إلى الفكاهة والمزاح، بدليل

حرصه حسب الوصف المتعسف أعلاه، على التبشير ليس بدين، وإنما بنقيض الدين، أي بمضاده، مستثمرًا بساطة وسذاجة الجماعات التي التقاها ثم استقر بين ظهرانيها، بعد أن هاجر من موطنه الأصل، بلاد الشام. كان اسم هذا الرجل الذي "ابتكر" "دين النقائض" هذا، هو "الشيخ عادي بن مسافر". وكان الافتراض الخاطئ الذي شاع بين البعض هو أن هذا الشيخ إنما كان يرنو إلى كشف مواضع ضعف البشر، فابتكر هذا الدين كي يبرهن للعالم مديات لا معقولية الإنسان وغرائب سلوكياته الاجتماعية، مبرهنًا، في الوقت ذاته، على إمكانية قيادة الإنسان من قِبَل الدجالين والمشعوذين عندما يطغى الجهل على الإنسان.

لقد دلَّتْ متابعتي ودراستي لهذا الدين على أن محدثي لم يكن على معرفة كافية بهذا الدين وإنما كان، هو الآخر، ضحية ما شاع بين السُكَّان المحليين من مفاهيم خاطئة وتنميطات حول اليزيديين وديانتهم ومعتقداتهم الروحية. وقد بقي الشائع بين العامة مشحونًا بالتحامل والتعالي على هؤلاء اليزيديين المسالمين، ذلك أن الافتراضات التي مرَّ ذكرها لم تكن صحيحة قط. هي افتراضات غير دقيقة ولا مبرهنة، لأن الدين اليزيدي لم يزل محاطًا بجدران سميكة من الغموض الذي لا ينجلي بالبساطة التي قد يتوقعها المرء، خاصة من قِبَل المسلمين والمسيحيين الذين يحيطون، سُكانيًا، باليزيديين، ويلاحظون عاداتهم وتقاليدهم وعباداتهم بشيء من الدهشة والاستغراب، فيعدونها من وحي عوالم اللامعقول، أي من

خارج حدود المألوف عندهم، على الرغم من أن هؤلاء من جيران اليزيديين من أتباع الأديان الأخرى إنما يحيون معهم في حقولهم وبلداتهم ويشاركونهم الأسواق والأماكن العامة وسواها من أنشطة الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

لقد شاعت بين العامة "خُرافة" خطيرة أخرى حول اليزيديين، تفيد بأن دينهم يحلل لليزيدي قتل من هو ليس من ملته، أي أنه يستبيح دم المسلم أو المسيحي، إذا ما ظفر به وتمكن منه، خاصة عندما يتعرض هذا الفرد بالإساءة لدين اليزيدي أو بالإهانة أو التندر به شخصيًا.

يقدِّم اليزيديون، على مسرح الحياة اليومية العامة، صورة معاكسة لهذه الأفكار الشائعة والخاطئة، ذلك أنهم أناسٌ مسالمون يحبون التعاون والتعايش مع سواهم من أتباع الأديان الأخرى، بالرغم من توكيدهم على تقديم أنفسهم كجماعة دينية وإثنية مختلفة عن عامة السكان، أي أنهم يرنون إلى أن يعدوا "أمة" يزيدية مستقلة، كما هي عليه حال المندائيين وأهل الحق الذين بحثناهم في الفصلين السابقين. وهذه إشكالية معقدة في العراق المعاصر، بقدر تعلق الأمر بالإقليم الكردي منه لأن حدوده ومكوناته لم تحصر بدقة وعلى نحو رسمي متفق عليه ما بين الحكومة المركزية وحكومة إقليم كردستان العراق ذات الحكم الذاتي. لذا يتنازع كل من العرب والأكراد على اليزيديين، فالعرب يدّعون أن اليزيديين عرب؛ بينما يؤكد الأكراد أنهم كرد، برغم حقيقة أنهم يتكلمون الكردية

وينحدرون، حسب معطيات البحث العلمي في أصولهم، من جذور إثنية إيرانية/هندية[١]. إن المتوقع هو أن يتواصل النزاع على تبعية اليزيديين على نحو لا نهائي بسبب أصولهم الإثنية المختلطة وبسبب غياب تاريخ مسجل لهم. والأهم مما تقدم ذكره تبرز حقيقة أن دينهم إنما "هو خليط ديني توفيقي تركيبي معقد، يضم عناصرًا يُعتقد أنها كردية قديمة، زيادة على شيء من بقايا الزرادشتية وآثار من الإسلام" [٢]. وإذا كانت هناك ثمة حيرة عند الباحثين تشوب مهمة تتبع جذور اليزيدية، فإن معاينة أتباعها بالعين المجردة تزيد من شائكية الخروج بخُلاصات حاسمة.

حتى من منظور عيني مجرد يشكل اليزيديون، رجالاً ونساءً، مشهدًا مربكًا للمشاهد لأنهم يبدون وكأنهم يأخذون شيئًا من هذه الجهة ويستعيرون سواه من الجهة الأخرى بضمن فسيفساء مجتمعي زاخر بالجماعات الدينية والعرقية المتنوعة. إنها "التركيبية" على أبهى صورها. يشترك اليزيديون في مناطق سكناهم مع التركمان والآشوريين والسريان والقوقاز والجورجيين والأرمن والأوكرانيين والفرس والعرب والكرد، بطبيعة الحال. أما في إقليم تمركزهم الأساس، شمال العراق، يلاحظ المرء أن رجالهم ونساءهم يرتدون بعضًا من الملابس البدوية العربية، وبضمنه أغطية الرأس البدوية، بينما تبدو النساء اليزيديات أكثر عصيانًا على التمييز عن سواهن من نساء الكرد والكلدان، ناهيك عن شيوع

السراويل الفضفاضة المتدلية التي يشارك اليزيديون فيها جيرانهم الكُرد.



لقد تركت المفاهيم الخاطئة التي شاعت عن اليزيدية بصماتها السلبية التي آلت إلى عد اليزيدية حال شاذة مشوبة بسوء الفهم وحرف التقديم درجة عد اليزيدية، كما هي حال الأديان التي سبق رصدها في هذا البحث، من "أديان المضطهدين" (٣)، إذا ما وظَّفنا اصطلاح الباحث "فيتوريو لانتيرناري"Vittorio Lanternari:

إنه لمن الخطأ بمكان أن تخص العامة اليزيديين بنظرة دونية، فتتجنب التعامل معهم نظرًا لسيادة الخرافة على حساب الحقيقة، ومنها شكوك خاطئة تفيد بأن اليزيديين يبغضون المسلمين والمسيحيين. بل لنا أن نلاحظ أن المسلمين أكثر عدائية في التعامل مع جيرانهم من اليزيديين بسبب أن بعض اليزيديين يحترف تقطير المشروبات الروحية والكحولية وتسويقها وبيعها. وليس بأقل إثارة

للملاحظة في هذا السياق، هو ذلك المفهوم الخاطئ الشائع الذي يحتضنه أتباع الأديان الأخرى كالمسلمين والمسيحيين والذي يفيد بأن لليزيديين عيونًا حسود شريرة يمكن أن توقع المصائب على رؤوس وحظوظ ضحاياها.[٤]

أما حقيقة اليزيديين الطيبة، فغالبًا ما تغمر، أما عمدًا أو جهلاً، فيكون مصيرها التغييب لأنها تغرق بما لا يحصى من الخرافات والمفاهيم الخاطئة والمنظورات الجاهزة التي تغمطهم حقهم في التعامل الاجتماعي العادل على قدم المساواة مع سواهم.

يمكن للمرء أن ينحي بلائمة الغموض والغيمية اللتين تغلّفان الدين اليزيدي على رجال الدين منهم، أي على الشيوخ والمريدين والـ"بيرية" أي السادة، بسبب عنايتهم المفرطة بالحفاظ على تقاليد وطقوس الدين بعيدًا عن أعين "الغرباء" أو عبث "الدخلاء"، بغض النظر عمّا يعتنقون، زد على ذلك حرمان الطبقات الدنيا في مجتمعهم نفسه من أن يعرفوا عن دينهم أكثر مما ينبغي. لذا تتحمل نخبة رجال الدين العبء الأكبر بقدر تعلق الأمر بما شاع خطأً عن اليزيدية وعن عادات المؤمنين بها، وهي حال لا تخلو من المخاطر بقدر تعلق الأمر بالسياسات التي تتبعها الحكومات حيالهم في الدول التي يقطنها اليزيديون. في كتابه المفيد الموسوم بـ(اليزيديون)، يذهب المؤرخ والباحث الاجتماعي السيد عبد الرزاق الحسني، مبررًا، إلى أن اليزيديين يفضلون الاستقرار في مناطق كأداء بعيدة المنال كي يحموا أنفسهم من الاعتداءات ومن الحملات العسكرية

المتعددة التي دأبت الأنظمة الحاكمة على إطلاقها من أجل تحطيم دينهم وكسبهم للإسلام. لقد أطلق ولاة الموصل العثمانيون مثل هذه الحملات العسكرية الشرسة، وهي حملات لم تزل لا تفارق ذاكرة اليزيديين. [٥]

لقد أخفقت أغلب هذه الحملات العسكرية المذكورة نظرًا لتشبث اليزيديين بدينهم وذودهم عن ديارهم وإصرارهم على عاداتهم وثقافتهم الخاصة، زد على ذلك حقيقة مفادها أن رجالهم مقاتلون جبليون أشدَّاء، فقد دلَّ قتالهم على رباطة جأش عالية وعلى حيلة وقدرة فائقة على المناورة في المواجهات العسكرية مع القوات التقليدية التي حاولت مرارًا غزو ديارهم الجبلية. تلقي هذه وسواها من الحملات العسكرية والغزوات - التي كما ذكرنا، تشنها الحكومة أو الجماعات الإثنية والدينية المجاورة ضد اليزيديين أحيانًا - الضوء على صعوبة الطبيعة الجغرافية للبِقاع التي كانوا قد انتقوها للسُكنى ولممارسة طقوسهم الروحية بسلام وحرية بعيدًا عن أعين وضوضاء الآخرين. هم يفضِّلون العيش في المناطق المعزولة التي تضمن لهم حدًّا أدنى من التماس المتكرر أو المطول مع سواهم من أتباع الأديان والجماعات الإثنية الأخرى، رغبة في الحفاظ على نقائهم المجتمعي وتقاليدهم الدينية. هذا هو سبب رفضهم أداء الخدمة العسكرية الإلزامية، تأسيسًا على أن حلاقة الذقن وتحريم مشاركة غير اليزيديين في أدواتهم وموائدهم هما من فروض دينهم. [٦]

إنهم عادة ما ينزعجون عندما تُوجَّه إليهم الأسئلة حول دينهم أو عاداتهم أو تفاصيل طقوسهم عند اختلاط المسلمين أو المسيحيين أو اليهود بهم.

تلقي هذه العناية الخاصة بعدم البوح بالكثير عن تفاصيل دينهم وبحفظه وحمايته من عبث الآخرين، الضوء على قناعة الباحثة "السيدة دراور" (التي مرَّ ذكرها في فصل المندائيين) غير الدقيقة التي تفيد بأن دين اليزيدية لا يزيد عن كونه "عبادة سرية" (٧)، كما أنها يمكن أن تلقي الضوء على خطأ آخر يفيد بأن اليزيدية إنما هي "طائفة إسلامية" (٨). للمرء أن يحيل هذه التصويرات والتصورات الخاطئة إلى شخصية مؤسس هذه الديانة، "الشيخ عادي بن مسافر الأموي"، لأنه كان مسلمًا متصوفًا في البداية، ثم هاجر إلى نواحي شمال العراق من بلاد الشام حيث استقر هناك وباشر الإعلان عن دينه والتبشير به، مقدِّمًا نفسه رجلاً مقدسًا أو مُوحى إليه أثناء القرن الثاني عشر الميلادي. لا تجهزنا المراجع بما يكفي من المعلومات عن حياته وسيرته قبل أن يهاجر من موطنه الأصل إلى شمال العراق، درجة أن المرء يجد نفسه مضطرًا إلى الشك في حقيقة أن اسمه "الشيخ عادي بن مسافر": هل كان هذا اسمه الحقيقي أم اسمًا مستعارًا أو منتحلاً؟ أما بالنسبة لأصله السوري فإنه مستوحى من لقبه "الأموي"، وهي سلالة حُكم إسلامية لا تحظى بالشعبية في العراق. بل وأن للمرء أن يفترض أن الأكثر تسببيًا لعداء المسلمين لليزيديين هو لفظ "يزيد" الذي يشتق اسم دينهم منه، لأنه يذكِّرهم

بالخليفة الأموي الثاني الذي يحملّه المسلمون الشيعة مسؤولية قتل إمامهم الثالث، الحسين بن علي بن أبي طالب (رض)، في العراق خاصة. تدعي بعض المصادر أن اليزيديين يقدّسون الخليفة الأموي "يزيد بن معاوية"، عادين إياه تجسيدًا للشخصية المقدسة لديهم، أي شخصية السلطان إيزي أو (عزي) [٩]، وهي حال يصعب إدراكها أو ربطها بسواها من المعتقدات، حتى بضمن سياق الإيمان اليزيدي بالتجسد وبتناسخ الأرواح.

أما أخطر المفاهيم الخاطئة، فهو المفهوم الذي يفيد بأن اليزيديين إنما يعبدون الشيطان من دون الله، فيمكن تتبع علته إلى إيمانهم بأن الله قد خلق العالم ثم وضعه تحت وصاية سبعة ملائكة برئاسة كبير الملائكة الذي يمثِّل "جوهر الضياء"، أي "طاووس ملكه" tawus malake، الملاك الذي طالما عدَّه اليزيديون تجسيدًا مرئيًا لمؤسس دينهم الشيخ عادي نفسه، "بوصفه الملاك طاووس" [١٠]. ولكن بغض النظر عما يعتوره هذا الموضوع من إرباك وغموض بسبب التداخلات والاختلاطات غير الواضحة، تذهب السيدة "دراور" إلى أن هذا الملاك المقدس إنما يمثل الإنسان نفسه، لأن الإنسان يمكن أن يكون فاعلاً للخير أو فاعلاً للشر في آنٍ واحد. لذا فإنها تكتب ما نصه:

(يرمز طاووس ملك، من منظور معين، للإنسان ذاته، إذ يجرب مبدأ الضياء الإلهي التجسد ظلامًا، فالظلام هو عالم المادة. لذا ينبع الشر من الإنسان ذاته، أو بالأحرى، هو ينبع من أخطائه). [١١]



ينطوي ما ورد أعلاه على الكثير من الصحة والدقة نظرًا لعكسه الطبيعة المزدوجة للإنسان الذي يرمز اليزيديون له بـ"الطاووس ملكه"، ليس فقط بوصفه تجسيدًا لـ"عادي بن مسافر"، وإنما كذلك بوصفه تجسيدًا لكل النوع الآدمي لأنه يكمن على عنصر الشر "شيطان"، وعلى عنصر الخير. والعنصر الأخير مضموم في كينونة الإنسان كذلك، فيجسِّد المركب المتكون من هذين العنصرين المتصارعين القوى التي تحكم الوجود والتي تؤشر اعتماد اليزيدية الثنائيات، ذلك التيقن الذي يقبع في جوهر فلسفة الأنظمة الدينية الثنوية. وهي الأنظمة التي ترتكن إلى الإيمان بأن الوجود إنما تتجاذبه قوى متعاكسة، فهو في جوهره يعتمد آليات الصراع: الخير معاكسًا للشر والضياء معاكسًا للظلام والأبيض معاكسًا للأسود والعالي معاكسًا للواطي، وهلم جرا على هذا المنوال عبر لا نهائية الحياة والوجود. عندما يمجِّد اليزيديون "طاووس ملكه"، فهم إنما يمجدون هذا المبدأ الفلسفي الذي يعتمده دينهم في نظرته للوجود والملكوت.

وزيادة على ما سبق ذكره، يمثل "طاووس ملكه"، بالنسبة لليزيديين، تجسيدًا للإله على الأرض، فهو ينزل إلى الأرض من عليائه في أول يوم أربعاء من شهر نيسان (أبريل) من كل عام، رمزًا للربيع ولفكرة التجدد والحيوية، فيقتنص اليزيديون هذا اليوم كمناسبة للاحتفاء بـ"طاووس ملكه" عبر تقليد الطواف، إذ يطوفون به رافعين له رمزًا اسمه "سنجق" عبر قراهم. هذا السنجق (١٢)، هو عبارة عن تمثال صغير يمثل طائرًا مصنوعًا من معدن النحاس، يحمل عاليًا وسط تعابير الفرح والاحتفال سنويًا. يحتفي اليزيديون به نظرًا لرمزيته بالكثير من الحبور والانتشاء اللذين يرافقان الرقصات الفولكورية الجماعية المعروفة بـ"الدبكة" وعلى أنغام الموسيقى مع عب الكثير من "العرق" (١٣)، وهو المشروب المسكر المحلي الانتاج. من المهم أن يلاحظ المرء أن الاحتفاء بـ"طاووس ملكه"، يعدُّ هو ذاته، احتفاءً بمؤسس ديانتهم، "الشيخ عادي" نظرًا لإيمانهم بأن روح "عادي" قد تلبست تجسيد "طاووس ملكه"، علمًا بأن الأخير، أي التمثال الصغير، يُحفظ بعناية وسرية فائقتين في موضع غير معروف يؤمه المتدينون بأقصى درجات "الإجلال" لدى رجل دين يزيدي كبير، فهو فقط من يسمح بإخراجه أمام العامة في مناسبات معينة كتلك التي مرَّ ذكرها أعلاه. لذا يعد "طاووس ملكه" تجسيدًا لحكمة التخيير، ولاختيار الخير بإرادة حقة وتفضيله على الشر. إنه عكس للاعتقاد بأن الخير هو قرين الضياء أي الشمس، التي تطرد الظلام وتمنح الحياة للوجود بأشعتها. إنه الضياء الذي يبث الحياة في النباتات

لتعتمد عليها باقي المخلوقات الحية الأخرى من أجل تواصل الحياة والوجود. لذا لا تغادر السيدة "دراور" الواقع عندما تخلص إلى أن اليزيدية إنما هي شكلٌ من أشكال الحلولية الصوفية. (١٤)

أما بالنسبة للشيخ عادي، مؤسس هذا الدين، فيصعب التيقن مما يُشاع بأنه كان مسلمًا في بداية حياته، أي قبل الإعلان عن تأسيس دينه اليزيدي، نظرًا لأن الحكاية الشائعة تشير إلى أنه قد ظهر فجأة في إقليم نينوى الذي يقطنه اليزيديون اليوم حيث بدأ عمله التبشيري بدين جديد، دين يبدو من أكثر الأديان تجسيدًا للديانات التركيبية التوفيقية، دين قوامه مزيج من عناصر صوفية وإسلامية مختلطة ببقايا مترسبة من ديانات قديمة كانت قد شاعت عبر تلك الأصقاع، من كردستان وبلاد الرافدين، كالديانات الزرادشتية واليازدانية التي بقيت آثارها كامنة، فتجاوزت اختبار الزمن وقوة مروره لتبقى ثابتة في قعر العقل الجمعي للسُكَّان المحليين منذ أقدم العصور (١٥)، عَبْر الأقاليم المترامية بين إيران والعراق قبل ظهور الإسلام.

إن المبدأ الأساس الذي ترتكن إليه عقائد الأنظمة الدينية الثنوية من هذا النمط التركيبي إنما يقوم على الإيمان بثمة قوتين أبديتين متناقضتين ومتصارعتين تتجاذبان الإنسان والعالم الذي حوله: القوة الأولى، قوامها الخير المطلق (ورمزها الضياء)؛ أما القوة الثانية، فقوامها الشر (ورمزها الظلام). يؤمن اليزيديون بالوجود الدائم لإله الخير ("خُدا" بلغتهم)، كما هي عليه حال الكُرد والفُرس القدماء، الأمر الذي حدا بالسيدة دراور إلى ملاحظة أن لفظ "خدا"

يبقى دائم التكرار على ألسنتهم، كناية عن إيمانهم بإله الخير [١٦]. ولكن، مع هذا التشبث به، هم يخافون "الشيطان" ويعون آثار شروره المدمرة على البشر لأنه يمثل مبعث الشر المطلق على نحو دائم. هاجسهم هو الوعي الوسواسي بوجود الشيطان المتواصل المرافق لحياتهم، الأمر الذي يجعلهم في رعب دائم، خشية استثارة غضبه المدمِّر. يسكن هذا الخوف اليزيديين الذين تهيمن عليهم إرادة عدم إزعاج الشيطان أو استفزازه لتجنب غضبه وحيلته، درجة أنهم يخافون تلفظ كلمة "شيطان" في كلامهم، لأنها، كما يعتقدون، كلمة يمكن أن تجلب الغضب واللعنة على رأس من ينطقها. إذا ما أراد الإنسان أن يحمي حياته ويحافظ على كيانه من الغضب واللعنة، يتوجب عليه تجنب لفظ المكونات الصوتية للفظ "اسمه"، مثل الأصوات (ش+ط)، خاصة عندما تظهر في كلمة واحدة فيحرم عليهم تلفظها، مثل ألفاظ (شط) أو (شخاط) أو (شرطة). بل إن على المرء إذا ما تلفظ مثل هذه الكلمات أمام إنسان يزيدي متدين، أن يعي بأنه قد استفز هذا اليزيدي وربما توجّب عليه أن يتوقع أي ردٍّ فعلٍ انفعالي يخطر على باله.



لاحظ أن سيارات الشرطة في مناطقهم، يكتب عليها لفظ "شورتة" وليس "شرطة"، تجنبًا لمركب الصوتين /ط/ و /ش/ المشؤوم.

كما يعتقد اليزيديون بأن عنصرًا شيطانيًا يسكن بعض الخضار مثل (الخس) و(اللهانة)، لذا فإنهم يعدانهما من الخضار المحرمة، زراعةً وغذاءً. وإذا ما أرادت زوجة رجل يزيدي أن تستفزه أو تؤلمه أثناء خلاف عائلي، فإنها تعمد إلى إهانته بالقول بأن رائحة الخس تفوح من فمه، وهذه هي غاية الإساءة والاستفزاز حسب القيم الدينية اليزيدية.

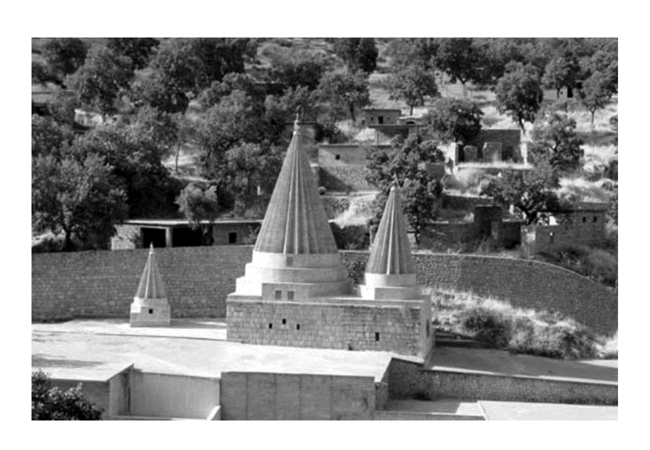
لأن الشيخ عادي قد لاحظ إيجابية الإفادة من العقائد الراسبة بين سُكَّان تلك الأصقاع، أي العقائد المتبقية، آثارًا، من الديانات القديمة وفلسفاتها، فإنه قد خلص إلى الاعتقاد بتفوق أتباع دينه بصفتهم "أُمة جديدة"، تأسيسًا على مبدأ جنسي، أو "جنوسي"، يفترض دونية الأنثى مقارنة بالذكر، وهي ظاهرة يمكن ملاحظتها من خلال الكلمات التي دائمًا ما كان يكرِّرها على مسامع مريديه أثناء حياته، فقد كان يقول:

" كنتُ حاضرًا عندما كان آدم يعيش في الجنة، وعندما رمى نمرود إبراهيم في النار. كما كنت حاضرًا عندما قال لي الرب: "أنت الحاكم والسيد على الأرض". منحني الرب الرحيم سبعة كواكب أرضية مع عرش السماوات". [١٧]

قد ينطوي النص أعلاه على ثمة اعتقاد مفاده أنَّ حواء، حسب معتقداتهم، لم تُخلق مع آدم، كما تقول قصص الأديان المنزلة. من هنا نبع الاعتقاد اليزيدي، بأنهم جماعة إثنية مختلفة لأنهم ينحدرون من آدم (وليس من اقتران آدم وحواء)، وهذا اعتقاد يشاركهم به المندائيون، بقدر تعلق الأمر بالمعتقدات الأسطورية وبصعوبة تتبع أصولهما كجماعتين عرقيتين/دينيتين. ربما تلقي هذه القناعة الضوء على القدسية التي يحيط بها اليزيديون حجرًا قضيبي الشكل، مناظرًا شكله لقضيب الذكر، يوجد في أحد كهوفهم المقدسة، تتردد عليه النسوة بهدف تخصيب العاقر منهن، أو بهدف أن تحظى العوانس بفرصة زواج مناسبة، شريطة أن تتمكن صاحبة المراد، العاقر أو العانس، من احتضان ذلك الحجر كاملاً وبقوة حتى تلتقي أصابع يدها اليسرى باليمنى من الجهة الأخرى لذلك القضيب الصخري ليتحقق المراد. (١٨)

يؤمن اليزيديون أن الشيخ عادي يكمن على قوى وقدرات لا نهائية تمكنه من خلاص الأفراد الملعونين من خلال حمله أرواحهم مع أرواح الأخيار على إناء ليضعها في الفردوس الأبدي. وللمرء أن يزعم أن حياة الشيخ عادي تتطلب المزيد من البحث والإستقصاء، خاصة عبر سني شطرها المبكر، السابق لهجرته إلى شمال العراق، إضافة إلى ملاحظة شطرها الأخير الذي تناهى إلى تعمده التوحد مع نفسه لأوقات طويلة للتأمل وللتفكير، بعيدًا عن الآخرين على جبل "الالش"، هناك حيث لفظ أنفاسه الأخيرة كي

يدفن في ذات البقعة. وقد استحال قبره مزارًا يتردد عليه المؤمنون من كل حدب وصوب للتبرك.



- قبر عدي بن مسافر في لالش -

وإذا كان الشيخ عادي سوية مع عدد من الشيوخ الدينيين الكبار قد صُيروا قديسين، فإن هذه الظاهرة تترادف مع النزعة الروحية القوية التي تميِّز أقوام الشرق الأوسط، وهي ذات النزعة التي قادت إلى ظاهرة "عبادة الأبطال"، إذا ما استعرنا تعابير الفيلسوف الأسكتلندي "توماس كارلايل". إن المزارات المتعددة التي يتردد عليها اليزيديون للتبرك والصلاة في أعياد ومناسبات سنوية معينة إنما تؤشِّر هذا النزوع القوي إلى تأليه مؤسس هذا الدين وتقديس عدد من أوصيائه وحُماة أتباعه من كبار الشيوخ الراحلين، خاصة وأنهم يؤمنون أن هؤلاء الشيوخ ينحدرون من عنصر إثني مختلف تمامًا عن سواهم من عامة اليزيديين، في مجتمع يزيدي قائم على

نظام الطبقات الاجتماعية المحكم، تلك الطبقات التي تشكِّل هرمًا مدرجًا قوامة البشر الذين يتوجب عليهم القبول بما كُتب عليهم من قدر المرتبة الاجتماعية، ليؤدوا أدوارهم الاجتماعية المناطة بتلك المرتبة بلا زيادة ولا نقصان. ولرجال الدين، بضمن سلم المراتبات الاجتماعية أعلاه، هرم تدرجي ثانوي خاص بهم: إذ أنه يبدأ بالقمة، أي من درجة الـ"بابا شيخ"، ثم ينحدر نزولاً إلى القعر عبر رجال الدين الأدنى مراتبًا، كالشيوخ العاديين والبيرية (من لفظ بير الذي مر ذكره في فصل أهل الحق) والقوّالين، أي الشيوخ الذين يضطلعون بتقديم المواعظ للعامة.

وعلى نحوٍ متوازٍ مع الأنظمة الدينية الشائعة في الشرق الأوسط، يقدِّس اليزيديون كتابين دينيين يعدونهما خزانتيّ عقائدهم وأساطيرهم وتاريخ دينهم، وهما:

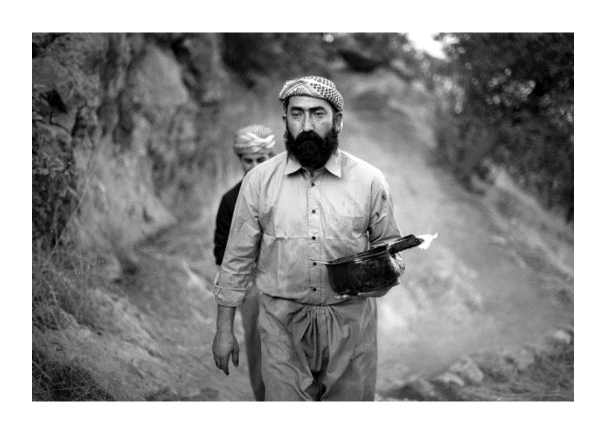
(١) كتاب التنوير ("كتب سلوة" بلغتهم)، وهو كتاب يفترض أن يلقي الضوء على مصائرهم وأقدارهم.

(٢) الكتاب الأسود ("مشيفا رش" بلغتهم).

ولا تتوفر عن محتوياتهما تفاصيل دقيقة، إذ أنهما ليسا في متناول الفرد اليزيدي العادي، لأنهما متاحان فقط لرجال الدين فهم مخولون بالإطلاع على هذه المحتويات لأنهم من سراة القوم المسموح لهم بتعلم القراءة والكتابة، علمًا بأن العامة بقوا ممنوعين من الالتحاق بالمدارس حتى بدايات القرن الماضي، حينما بدأ يسري شيء من التغيير على عقائدهم ومفاهيمهم وتقاليدهم الدينية.

لقد بقيت القراءة والكتابة دومًا من امتيازات الأغنياء ورجال الدين فقط قبلئذ.

وكما هي عليه الحال لدى المندائيين، من بين الأقوام الرافدينية الأخرى، يؤمن اليزيديون بثمة آصرة بين عناصر الماء والنقاء والضياء، أي العناصر التي تشكّل معاكسات لكل ما هو مظلم وملوث. لذا يعد اليزيديون ولادة الإنسان كولادة في عالم الضياء من عالم مظلم تغلفه الغوامض من كل حدب وصوب، وهي حال يمكن أن تلقي الضوء على تقليد العمادة الخاص بهم، فهم يستخدمون الماء المقدس المأخوذ من أحواض مقدسة خاصة. يمكن لهذا التقليد إلقاء الضوء على إيمانهم بتجسد الأرواح وتناسخها بعد الموت. لذا فإن الروح الشريرة، حسب عقائدهم يمكن أن "تهاجر" لتسكن في جسد بغل أو جسد أي من حيوانات الحمل الأخرى من أجل أن تعاني أعباء آثار الخطيئة، بل أنها يمكن أن تستقر في أجساد العقارب أو الضفادع، إذا كانت هذه الأرواح أكثر شرًّا.



وإذا ما كانت حياة الإنسان اليزيدي تباشر بالضياء والتعميد، فانها تنتهي بظلام القبر حيث يسجى المتوفي في قبره مع ملاحظة وضع ساعديه على نحو صليب على صدره. تمر حياة اليزيدي بعدد من المحطات المهمة كالختان (ليس واجبًا دينيًا، وإنما اختيارا) والزواج (بين أتباع الدين اليزيدي فقط، باعتبار اعتقادهم أنهم هم أمة مستقلة) والموت (كما لوحظ في أعلاه). زد على ذلك كله، تحريم الزيجات العابرة للطبقات الاجتماعية في دواخل هذه البنية الاجتماعية الطبقية المحكمة.

لا ريب في أن الأفكار الخاطئة الشائعة عن اليزيديين وعن عقائدهم وممارساتهم وطقوسهم الدينية قد نبعت من السرِّية الشديدة التي يحيط بها رجال الدين والشيوخ وزعماء طائفتهم تقاليد وعقائد دينهم بسبب نوع من التحسس المفرط حيال الغرباء من أتباع الأديان الأخرى، ذلك التحسس المتوارث الذي يتفاقم أمام أي عابث أو متدخل في شؤونهم وشؤون دينهم. إن هذا الكتمان هو المسؤول الأساس عما شاع ويشاع من أساطير وتمثيلات خاطئة من النوع الذي يتناقله الغرباء ويختلقونه حول كل غامض وكل ما هو ليس واضحاَ: فالغموض مسؤول عن إساءات التمثيل. حتى الـ"طاووس ملكه" الذي سبق ذكره يبقى مخفيًا عن عيون الغرباء خشية التدخل أو إثارة حب الإطلاع لدى الآخرين. بل أن ما يزيد من تعقيد غوامض هذا الدين الغريب يكمن في الرموز الدينية المحفورة على الصخور المحيطة بفتحات كهوفهم المقدسة وبأبواب مزاراتهم

الدينية، ومنها رمز "الحية"، الذي غالبًا ما يعكس فكرتيّ التجدد وعودة الحياة في عموم ثقافات بلاد الرافدين القديمة، فهو يتجسد في الأسطورة السومرية والأكدية على نحو متكرر. وترمز الحية كذلك لتشبث الإنسان البطولي بالخلود على سبيل مشاركة الآلهة القديمة سجية الأبدية. هذا التشبث الرافديني البطولي القديم بفكرة "الإنسان الخارق" Superman، أي بجلجامش، البطل السومري لأول ملحمة بطولية في تاريخ الجنس الآدمي.



الخاتمة : سايكولوجية الأقلية الدينية

لا مجال لقانون الأغلبية في القضايا التي تخص الضمير.

(مهاتما غاندي)

الأطفال والأقلية المبدعة هم السعداء الوحيدون.

(جين كالدويل)

• • • • •

لا بد لمن يحلِّق عاليًا عبر فضاءات الروحانيات والأساطير التي يتيحها "المغمور من أديان الشرق الأوسط" أن يلاحظ تشكل "هالة" من الانطباعات حيال إقليم الشرق الأوسط الذي يفوح برائحة التاريخ، خاصة تاريخ الحياة الروحية لنوعنا الآدمي الممتد وجوده إلى أزمنة غابرة في القدم. إنه إقليم سكنته أكثر الأقوام خيالاً وخصوبة روحية حيث أدَّتْ دراما بحث الإنسان عن أساس للتيقن، تلك الدراما نصف المأساوية ونصف الكوميدية، هي الدراما التي تجسِّد بلفظ الإله تلك العين الرقيبة الدائمة الوجود والكُلِّية العلم والكُلِّية القدرة التي ترى ما لا يراه الإنسان من الملكوت ومن استحالات الوجود وطبيعة البشر. إنها العين التي لا تكلُّ من مراقبة نياتهم وأعمالهم. من الصراع المركزي لهذه الدراما نبع قرن التدين بالخوف الهاجسي من إله السماوات الذي يراقب ملكوته من عليائه على نحو متواصل أبدي(١).

إن حاجة الإنسان العتيقة لموجود جبار فوقي إنما تتجلى في محاضرة الفيلسوف الأسكتلندي "توماس كالاريل Carlyle" الموسومة بـ"البطل نبيًا: محمد، الإسلام" (١٨٤٠)، حيث يتأمل كيف تطورت الرمزية الإلهية من خلاء صحارى الشرق الأوسط القديم، ملاحظًا: " أنهم عبدوا النجوم.. وعبدوا الكثير من الأجسام الطبيعية،ـ فعدوها رموزًا وتجليات مباشرة لخالق الطبيعة. لقد كانت هذه الحال خطأً، ومع هذا لم تكن خطأً مطلقًا، ذلك أن جميع مخلوقات الله إنما هي رموزٌ له". (٢)

بهذه الطريقة، كما يرى كارلايل، تمكَّن الإنسان القديم أن يلبِّي ميله الطبيعي للعبادة وللتدين، لذا فإنه من الضروري لقارئ "المغمور من الأديان الأخرى" في الشرق الأوسط أن يخلص إلى وجود عناصر وأنماط تكرار من ذلك البحث الإنساني المضني والقديم عن التيقن الروحي في التقاليد الدينية الثلاثة التي رصدناها بشيءٍ من الاختصار في فصول هذا البحث، أي أديان: أهل الحق والمندائية واليزيدية، فهي تقاليد روحية تقود المرء إلى تأمل الوجود الذي أضنى الإنسان منذ أقدم العصور؛ ولم يزل اليوم. من هذا التأمل الوجودي نبع الانطباع الذي يفيد بأن التقاليد الروحية الثلاثة أعلاه إنما هي جوهريًا من أصداء تلك الأسئلة العتيقة التي أعيت الإنسان وبقيت تؤرِّقه بشكل متواصل، ثابتة في قعر عقله، متجسدة أنماطًا أسطورية نفسية جمعية، إذا ما استعرنا اصطلاح "مود بودكن" Bodkin(٣). حين يتعمق المرء في هذه التقاليد الدينية

القديمة فإنه يجد نفسه أمام رؤى وتواريخ أقوام كانت قد مرَّتْ من هنا أو ذابت، وأخرى كانت قد تلاشت. يعاين القارئ من خلال هذه الأديان التركيبية والتوفيقية سلالات منقرضة لممالك وحواضر عظيمة ولهياكل ومعابد وأرباب وأنصاف أرباب كان يعبدها رجالٌ ونساءٌ مثلنا، من مختلف الأجناس وألوان البشرة والخلفيات الثقافية.

واحدٌ من أهم الاستفهامات يفرض نفسه على ذهن المرء، عبر غياهب مثل هذه المادة الفكرية المهمة، إنما تصعب الإجابة عليه، خاصة وأنه يدور حول المفاهيم والمنظورات المتنوعة لمبادئ التوحيد والشرك والإلحاد ليجد الباحث نفسه، في نهاية المطاف، مضطرًا لأن يخلص إلى أن التقاليد الدينية التي درسناها عبر الصفحات السابقة تجسِّد أمامنا الحدود السائلة والمتداخلة التي تفصل الديانات والعبادات المتنوعة، خاصة وإن " الله لايمكن أن يُعرّف أو يحتوى في أي من التصنيفات التي يضعها الإنسان" [٤]، ناهيك عن شائكية الأفكار المتداخلة التي تبدو وكأنها تستجيب لقوانين تطور ونمو شبيهة بقوانين علم الحياة، كقانون "البقاء للأصلح" وقانون "الانتخاب الطبيعي". لذا ينبغي للمرء أن يتوخى الحذر في بحث قضايا الأصول والجذور الخاصة بهذه الأديان لأنها بدرجة من التشابك والاختلاط أنها تتحدى طرائق البحث وأدوات الاستقصاء العلمي على سبيل تحقيق التيقن والعقلنة. وليس بأقل أهمية مما سبق ذكره، تأتي الخشية من إثارة حفيظة أو انزعاج الأقليات الدينية موضوع البحث نظرًا لوجودها في فضاء اجتماعي

أوسع تسوده أديان الإسلام والمسيحية، واليهودية أحيانًا؛ فهو فضاء مشحون بالتحامل والعواطف الطائفية المبطونة والمضادة للغير، تلك العواطف التي تحث على الاحتفاظ بنظرات دونية نحو هذه التقاليد الدينية للأقليات الصغيرة العدد، خاصة عندما يستذكر المرء ضعف هذه الأقليات مقارنة بالأكثريات، حيث تباشر الأخيرة الأقليات الدينية بوصفها تؤمن بتقاليد روحية غير توحيدية أو غير ملتزمة بالمألوف من العقائد، أو باعتبارها تقاليدَ دينية مشوبة غير نقية الأصول والعقائد. إن إقليمًا تركبه العصبيات الدينية والطائفية مثل إقليم الشرق الأوسط تزيد طبيعة شعوبه من تعقيد حل معضلة بحث الأصول والمنابع الخاصة بهذه الأقليات الدينية؛ لذا يغدو البحث فيها بمثابة السير في حقل ألغام بالنسبة للباحث، أي أنه يمكن أن يواجه انفعالات وضغائن وشحنات عاطفية قد لا تكون قد خطرت على باله قبل مباشرة البحث.

ومع ما سبق ذكره من اعتبارات وعصبيات، يمكن للمرء الخروج بعدد من الخلاصات التي تستحق الملاحظة بقدر تعلق الأمر بأديان الأقليات التي تمَّ رصدها فيما سبق من فصول. والحق، فإن أهم هذه الخلاصات تتبلور في أن هذه الأديان الثلاثة تشترك في كونها أديان تركيبية توفيقية Syncretistic Religions ، الأمر الذي يجعلها أكثر صعوبة للبحث وللتصنيف العلمي لأنها أديان لا تستجيب لأصناف التقاليد الروحية الشائعة بين دارسي الأديان، كصنف الأديان التوحيدية المعروفة: الإسلام والمسيحية واليهودية.

لذا لا يمكن وضع هذه التقاليد الدينية في أية سلة من سِلال التصنيف الديني بالمعنى الذي عرفناه للدين منذ نعومة أظفارنا.

إذًا، فهذه مناسبة موائمة لمساءلة التصنيفات التي تعتمدها دراسات الأديان من خلال مراجعة الكامن من أفكارنا عن الدين، تلك الأفكار التي تمَّ غرسها في دواخلنا فيما سبق من سنين. إن المعتقدات الدينية لأهل الحق والمندائيين واليزيديين تقدِّم لنا مثل هذه المناسبة لمراجعة أفكارنا وقناعاتنا السابقة، فتدفع بنا عبر اللاوعي إلى مدارات بعيدة كانت ممنوعة على المتأمل أو الباحث بسبب الأفكار المسبقة والمفاهيم الخاطئة التي غُرِست في دواخلنا، زد على ذلك عقبات سياسات حكومات دول الإقليم المعنية. لذا، فهي تقدِّم للمرء "صدمة وعي"، هي بدرجة من القوة أنها تفرض عليه مساءلة الملقَن والمتوارث من قناعات وأفكار، ليس بهدف التشكيك بهما، وإنما بهدف توسيع المدارك، دافعة بالوعي إلى فضاءات واسعة تجعله يتفحص هذه الأديان بتجرد البحث العلمي، كما يعاين الطبيب مريضه، بلا عواطف فردية.

وللمرء أن يلاحظ كذلك ثمة مزيج من عناصر روحية تعود أصلاً لديانات قديمة كاليازدانية والزرادشتية والڤيدية والهندوسية والمجوسية والكلدانية القديمة، من بين سواها من العناصر المؤتلفة في هذه الأديان، الأمر الذي يزيد من تعقيد مهمة العقل البشري لضم هذه العناصر المختلفة والمتصارعة في منظومة منطقية قابلة للإدراك أو للعقلنة.

من هنا نخلص إلى أن مهمة التصنيف التقليدي غير واردة بقدر تعلق الأمر بهذه الأديان التي يُلام تعقيدها على تنوع أصولها، باستثناء الاكتفاء بعدها من الأديان التركيبية/التوفيقية.

وللمرء أن يلاحظ في هذا السياق كذلك أنه من فضائل دراسة هذه الأديان العصية على ما خبرناه من تصنيفات وقناعات دينية هي إتاحة الفرصة للإنسان لمراجعة "الذات"، خارج الأُطر التقليدية السابقة التي تمَّتْ عملية غرسها في دواخل المرء منذ القِدم وعلى نحو أنماط وأفكار مسبقة من النوع الذي يسري في دواخلنا مع دمائنا في دورات متواصلة.

وثمة ملاحظة أخرى تشترك فيها هذه التقاليد الدينية تتجسد في غياب الكتاب المقدس الواحد، أي الكتاب التقليدي المكتوب الذي يمكن أن يكون مرجعًا كاملاً بالنسبة للمؤمنين وبالنسبة للباحثين على حد سواء، أي أنها أديان لا توفر كتابًا مقدسًا واحدًا يلم بكامل الدين، كما هي عليه حال القرآن الكريم بالنسبة للمسلمين أو الكتاب المقدس بالنسبة لليهود والمسيحيين. لذا يعول أهل الحق والمندائيون واليزيديون كثيرًا على التقاليد الشفاهية المتوارثة والمختزنة في ذاكرة سدنة هذه الأديان من رجال دين وكهنة ومشايخ. صحيح أن كل واحد من هذه التقاليد الدينية يمتلك نصًّا (أو نصوصًا مقدسة) يعتز به أو بها جميع المؤمنين، نصًّا من نوع كتاب الـ(كنزا ربّا) عند المندائيين وكتاب (كلامي سارانجام) لدى أهل الحق، بيد أنهما لايمكن أن يُقارنا بالقرآن الكريم بالنسبة للمسلمين أو بالإنجيل بالنسبة للمسيحيين والتوراة أو العهد القديم بالنسبة لليهود.

تجهزنا هذه الحال بفرصة لمساءلة واحد آخر من المفاهيم التي سبق تأطيرنا بدواخلها فالتزمنا بها على نحوٍ متعامٍ بوصفها الثابت أو المألوف الذي لا يمكن الخروج عنه: تقدم مثل هذه الدراسات في أديان الأقليات فُرص تجهيز المرء بمنظور "مقلوب"، بمعنى مختلف الزاوية، لمراجعة التيقنات والمفاهيم المسبقة. تتميز هذه الأديان بأنها مفتوحة للعقلنة وللاجتهاد العقلي بالنسبة للباحث الخارجي، لأن مبادئها وتيقانتها غير مطلقة، بمعنى أنها غير مضمومة في نصٍّ مقدسٍ واحدٍ لا يمكن المساس به، فهي مجاميع من العقائد والطقوس والأفكار موزعة بين المكتوب والمتناقل شفويًا والمحفوظ في الذاكرة. يشجع هذا التشتت اللاتقليدي الاجتهاد والتفكير الحُرّ غير الملتزم بخطٍ واحدٍ، خاصة عندما يتعامل المرء مع أفكار لا تتناغم مع السابق مما تلقنه. إنه لمن نافلة القول أن بعضنا يميل لأن يطلق تقييمات معيارية على أديان أهل الحق والمندائيين واليزيديين، بوصفها أديانًا غير ثابتة ولا مثبتة ولا تقليدية. يكمن غياب الكتاب المقدس، كما خبرناه في أدياننا المنزلة، إضافة على اعتماد الذاكرة والتناقل الشفاهي للتقليد الروحي المعني بواسطة أعداد صغيرة من رجال الدين والشيوخ وراء المفهوم الخاطئ الذي يعد هذه الأديان أديانًا أو عبادات "سرية"، وهو مفهوم تشويهي غير دقيق يمكن أن يتسبب بما لانهاية له من سوء الفهم والتنافر، وأحيانًا، بالبغضاء والضغائن. إن أتباع هذه الأديان الثلاثة ليس لديهم ما يخفونه من الشرور أو الأنانية أو السرِّية كما

يظن غير العارفين، لأنهم يعون بدقة وضعهم الاجتماعي كأقلية صغيرة قد تكون مستضعفة، لذا فانهم لا يطمحون لتجاوز حدود هذا الوضع الذي تراقبه الأغلبيات السكانية كذلك على نحو متواصل، إذ أن الأغلبيات دائمًا ما ترصد تبعية المرء الدينية في إقليم ملتهب كإقليم الشرق الأوسط. لذا يجد المرء أتباع هذه الأديان عامة يمتازون بالمسالمة والتعاون وبعدم التسييس، بمعنى تجنب التورط في العمل السياسي، على سبيل المثال. تنبع مواقفهم المتحفظة عامة من حرصهم على "الخصوصية" وعلى تجنب التصادم مع أتباع أديان الأغلبية. هم لايطلبون الكثير، فيكتفون بطلب احترام الآخرين لتقاليدهم الروحية وحرية ممارسة طقوسهم بلا إزعاج أو تدخل.

ولا تقل أهمية عما سبق ذكره من ملاحظات، هي الطبيعية الباطنية لهذه الأديان الثلاثة، وهي طبيعة تنطوي، من بين ما تنطوي عليه من أبعاد أخرى، على حضور وقوة العنصر الثنوي في عقائدها وفي مستويات الوعي المزدوجة لرؤاها، خاصة في تمييزها بين الظاهر والباطن. ولأن الثنوية أو الإزدواجية، من وجهة نظر تقليدية، مربكة للناظر الذي يميل إلى رؤية جانب واحد من الظاهرة، يغدو من العصي على هذا الناظر فهم وتمييز الدلالات السطحية والدلالات الباطنية للظواهر. من هنا ينبع التمايز بين البنى السطحية والبنى العميقة، إذا ما استعرنا مصطلح الفيلسوف الأميركي "نعوم تشومسكي" Chomsky في تحليلاته اللغوية. ومرة ثانية، تكمن هذه الصفة الباطنية وراء أسباب سوء

الفهم الذي يتناهى إلى أنها أديان أو عبادات مغلقة بالغوامض التي ينبغي أن تقشع من أجل إتاحة منظور واقعي مباشر لجوهرها. وهكذا يقود عدم الإدراك إلى سوء الفهم، بينما يقود سوء الفهم إلى استفزاز العصبيات ثم إلى التدخل أو العبث، وإلى حدوث ما لا تُحمد عقباه من الإحتكاكات. إنها لمن الاختلالات الخطيرة لدى البعض هو ذلك الاكتفاء بالمستوى السطحي من الرؤية، أي الاقتناع المتوافق مع تجنب جهد رؤية ما هو أعمق أو ما هو مختلف. السطحية والإبتسار هما المسؤولان عن تعقيد مباشرة هذه الأديان على نحو علمي وحيادي. لذا تقود السطحية، تلقائيًا، إلى اختلال الرؤية وإلى سوء الفهم، ثم إلى إخفاق التواصل.

يكهرب سوء الفهم العلاقات بين المسلمين والمسيحيين واليهود، من ناحية، وبين أتباع أديان الأقليات، الأمر الذي يجعل الأخيرين ينكمشون لائذين بقوقعتهم خوفًا من الاعتداء ومن محاولات إذابتهم أو ضمهم لأحد الأديان الرئيسة التي تحتضنها الأغلبية في مهادٍ ثقافي شمولي يميل إلى تجاوز الروافد الاجتماعية الثانوية.

لقد صار من الشائع أن ينحى بلائمة غياب قنوات الاتصال والتواصل على أتباع هذا النوع من الأديان الثانوية، على الرغم من أن الخلل ينبغي أن يُحال إلى الأغلبيات بسبب إصرارها على تطبيق قناعاتها الدينية، معاييرَ، من موقع علوي على تقاليد أقليات روحية مختلفة، تقاليد يعتدُّ معتنقوها بفلسفاتها وبنظرتها للحياة والوجود. يكمن كل دين، كما هي عليه حال اللغات، بغض النظر

عن أعداد معتنقيه، على نظام روحي داخلي خاص به، قوامه المعتقدات التي قد لا تتناغم مع ما يُعدُّ عامًا أو شائعًا ومقبولاً بالنسبة للغالبية التي تميل دومًا إلى فرض رؤاها على الأقلية.

إن "النحو الديني" لأديان أهل الحق والمندائيين واليزيديين إنما هو نحو يختلف تمامًا عن النحو الديني للإسلام والمسيحية واليهودية. لذا فإنه من الخطأ بمكان أن نعتمد نحوًا موحدًا، نعده نحوًا كونيًا، على سبيل تطبيقه على جميع الأديان، معتقدين بأنه قادر على احتوائها جميعًا بضمن بنية نحوية كونية. بالضبط كما أخطأ النحويون التقليديون في أوربا عندما اعتقدوا بامكانية تطبيق قواعد اللغة اللاتينية على جميع اللغات الأوربية باعتبار أن قواعد اللاتينية هي قواعد لغوية كونية. وقد دلَّتْ التجربة العلمية أن قواعد اللغة اللاتينية لا يمكن أن تُطبَّق على اللغة العربية أو الإنكليزية أو الفارسية أو الصينية في آنٍ واحد، لأنها لغات مختلفة عصية على قواعد اللغة اللاتينية بسبب احتفاظها بقواعد خاصة بها.

هنا تتجسد أمامنا ضرورات معالجة إخفاق التواصل على نحو لا يقبل الشك، تأسيسًا على التمييز بين مستويين مختلفين تمامًا من الوعي المرتكن إلى القناعات الدينية والأفكار الروحية النابعة من منظورات فلسفية متعاكسة وذهنيات متناقضة وأنماط تربوية متباعدة.

يؤول غياب التواصل إلى ما يتبعه من بناء الجدران بين الجماعات الاجتماعية المتنوعة، وبالتالي إلى تطوير نوع من

النزعة الانعزالية التي يعمد إليها أفراد الأقليات الدينية، إجراءً وقائيًا، وهي حال تقودهم إلى التمسك بالاعتقاد بأن الآصرة الدينية إنما هي آصرة غير قابلة للتذويب وللتفكك، آصرة تجعل أتباع الدين الواحد، بغض النظر عن أعدادهم، يؤمنون أنهم أمة مستقلة، خاصة عندما تتشبث الأقلية الدينية بتقليد الزواج المغلق الذي لا يسمح لأفرادها الاقتران بأتباع الأديان الأخرى كما يفعل أتباع الأقليات المدروسة في هذا البحث. بل إن هذه الحال الانفصالية تزداد عمقًا وبناءً للجدران الفاصلة عندما يكون دين الأقلية دينًا مغلقًا من ناحية كونه دينًا لا يقبل احتضانه من قِبل الآخرين، أي عندما لا يكون من الأديان التبشيرية. تنطبق ظاهرة الاعتزال هذه على المندائيين الذين يتعزز وعيهم بذاتهم كـ"أُمة" أو كـ"نوع" مختلف، نظرًا لإيمانهم بأنهم إنما ينحدرون من شجرة أسلاف تختلف عن شجرة أسلاف سواهم من البشر، بمعنى أنهم يؤمنون بانتسابهم إلى آدم آخر، سوى آدم، أبو النوع البشري. تسود مثل هذه القناعة بين اليزيديين ولكن على درجة أدنى من الالتزام بالنقاء الجيني. وكذا الحال مع أهل الحق الذين تغلب عليهم الصفة الكُردية بالرغم من أن تضامنهم البيني يتعمق، ليس فقط بتقليد التزاوج المغلق، وإنما كذلك بأخويات مؤسسة "الخاندان" الخاضعة لسلطة "البير" أو السيد الأبوية، كما ناقشنا ذلك في الفصل الثاني أعلاه.

يجد الشعور القوي بالانتماء إلى قومية مستقلة لدى هذه الجماعات الدينية والعرقية ما يعزِّزه ويدّعمه، فيما يقطنون فيه من

أقاليم جغرافية منعزلة، تتيح لهم حدود طوبوغرافية طبيعية تساعد على الحفاظ على أسلوب حياة خاص بهم وعلى ممارسة عاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم بعيدًا عن سواهم. هذه الخصوصية تخدم كمسافة اجتماعية ونفسية فاصلة تمتد بينهم وبين "الغرباء" فتبعدهم عن محاولات غزوهم أو الوصول إليهم، خاصة عندما يشك بعدائية الغرباء أو عصبيتهم الدينية.

لذا فإنه من نافلة القول أن ينمو الشعور الهاجسي بالاختلاف لدى أبناء هذه الأقليات الدينية، وهي حال غالبًا ما تولِّد خوفًا وسواسيًا وشعورًا ثقيلاً بالظلم أو بالتمييز أو بسوء الفهم الذي يفضي إلى سوء المعاملة. سرعان ما يغمر هذا الخوف مثل هذه الأقليات الدينية على نحو تلقائي درجة لوذهم بأنماط سلوك أتباع ما يسمى بـ"أديان المضطهدين" التي تمَّتْ الإشارة إليها أعلاه. إنها سلة الأقليات التي تبقى تناضل من أجل أن تنال الاعتراف الرسمي والحرية والشعور بقيمتها الاجتماعية حتى يستحيل هذا النضال نمطًا مضمونًا إلى حياتهم وسلوكهم. إن هذا الشعور الوسواسي بأنهم يعامَلون على نحو مشحون بالتمييز وباللاعدالة، خاصة في دول الشرق الأوسط، إنما يتخلل نفوسهم على نحو تتابعي جيلاً بعد جيل. إنه الشعور الذي يكمن وراء تمكن أبناء هذه الأقليات من إجادة بلاغيات الشكوى والتعبير عن الظلم، فيؤهلهم الشعور بالظلم لأن يكونوا دائمًا مقاتلين أشداء، على الرغم من أنهم قد يطلبون النجدة أحيانًا من الأمم الأجنبية والدول المجاورة، خاصة من الدول

الديمقراطية الغربية حيث تسود قيم العلمانية، فتمنحهم ما يلبي مطامحهم وحرياتهم الدينية. لقد كمن هذا النوع من المشاعر الاحتجاجية وراء النزوح المندائي الجماعي المتواصل من أوطانهم في العراق وإيران، زد على ذلك النزوح الأدنى كثافة لليزيديين ولأهل الحق نحو دول العالم الغربي. وقد لاحظ أحد المرتحلين الأوربيين الذين زاروا العراق قبل قرون الميل المندائي لتعريف الغرباء بدينهم وأحوالهم سنة ١٢٩٠، إذ يسجل "ريكولدو دا مونتيكروس" Montecroce استذكاره لجماعة متفردة بسبب طقوسها، تستقر في البرية بالقرب من بغداد: يُطلق عليهم اسم "الصابئة"، بالقول:

بادرني العديد منهم راجين بإلحاح أن أذهب لزيارتهم. هم قوم بسطاء للغاية ويدَّعون أنهم يمتلكون شريعة إلهية سرِّية، فيحتفظون بها في كُتب جميلة. كتاباتهم هي خط وسطي يتراوح بين السريانية والعربية. إنهم يبغضون "إبراهيم" بسبب تقليد الختان، ويقدِّسون "يوحنا المعمدان". هم يتركزون بالقرب من عدد من الأنهار التي تتخلل تلك البرية. إنهم يغتسلون ليلاً ونهارًا لتجنب غضب الله.[٥]

يمكن للشعور بالانتماء إلى أقليات دينية مضطهدة أن يلقي الضوء على ميل أبناء هذه الأقليات لتأييد الحركات والأحزاب السياسية المعارضة، خاصة تلك التي تعبِّر عن تعاطفها مع المضطهدين ومع الفقراء في المجتمع، وهي حال قد تساعدنا على فهم ميل شبيبتهم إلى الحركات اليسارية، مع إشارة خاصة لظاهرة

تأييدهم للأحزاب الشيوعية بسبب تجاوزها الهويات الدينية والإثنية الثانوية لصالح الهوية الأممية الأوسع، بغض النظر عن الثروة ولون البشرة أو الانتماء القبلي أو المعتقد الديني. هذه الظاهرة لا تنطبق بدقة على المتدينين المحافظين من علية القوم، بينما هي تنطبق بشكل ملحوظ على الفئات العمرية الأصغر التي تلجأ إلى الأفكار الشيوعية أداة للارتقاء؛ بالذات فوق حدود الولاءات الصغيرة الأدنى. لذا شاعت الأفكار الماركسية والاشتراكية بين صفوف الأكراد الذين يعتنقون دين أهل الحق، ومن بينهم، كما يبدو، عدد لا بأس به من قادة حزب العمال (PKK) في تركيا.

وبقدر تعلق الأمر بالجدل الدائر حول تباين الأغلبية مقارنة بالأقلية، ذلك الجدل الذي غالبًا ما يقود إلى السؤال: أي منهما أكثر حكمة من الأخرى؟، زيادة على السؤال حول التوفيق بينهما وحول كيفية انتهاء الأمر بالأقلية إلى الحصول على امتيازات أكبر وأكثر من الأغلبية. يغدو من المهم أن نلاحظ الآتي: أنه ليس من الصحيح دائمًا أن تستثمر الأقليات حالها كأقليات على نحو مجحف، خاصة تلك الأقليات الدينية التي تخصها الأغلبية بنظرة دونية، كونها أقلية متطرفة أو باعتبارها أقلية منفلتة أو حتى بوصمها "أقلية ملحدة"، تعسفًا. وبغض النظر عن الجهود المخلصة أو غير المخلصة، لتحقيق العدالة وتوفيرها للأقليات، يبقى الشعور الهاجسي بأنها جماعات استثنائية تنتمي إلى مدار مختلف خاص بها، مع إشارة خاصة لمعاناتها الاضطهاد والكبح اللذين يقودان إلى واحدة أخرى

من الصفات المميزة للأقليات الدينية، وهي من الصفات الملازمة لها، وأعني بها لوذها بالعقائد المهدوية. لذا يضمُّ تأمل ظهور مخلّص منتظر نوعًا من العواطف الثأرية والانتقامية ترنو إلى ردِّ الأقلية على مضطهديها، فيما لو كان هؤلاء المضطهدون أغلبية أو نظامًا حاكمًا أو جماعة دينية أخرى. لنلاحظ أن كل واحدة من هذه الأقليات الدينية التي درسناها في الفصول السابقة تحتضن إيمانًا مهدويًا من نوعٍ ما، إيمان يرنو إلى ظهور مخلّص موعود من الغيبة في يومٍ ما من أجل تعويض ما خسرته وقاسته الأقلية المعنية عبر الأزمان.

إنها "سايكولوجية الأقليات" هي التي يهمنا رصدها في إقليم الشرق الأوسط المضطرب. هي سايكولوجية تولد في دواخل النفس منذ طفولة الفرد وسنوات عمره ونضوجه، فيتصاعد ضغطها عليه عبر تتابع سنوات النمو والنضوج والاختلاط مع "الآخر" (من أتباع الأديان الأخرى) كي يطوِّر شعورًا أُحاديًا وقويًا بالهوية، شعور يتغذى على منظور قوامه الاختلاف والاستثناء، فيعتمد هذا الاختلاف وسيلة لتبرير الابتعاد عن نمط الأغلبية السائد.

تبرِّر هذه الصفات كذلك بحث أفراد الأقليات عن التفرد والتفوق عبر تحقيق الإنجازات الاستثنائية في التجارة والتمويل، في العلوم والفنون، وأحيانًا، في الميادين العسكرية كذلك. ثمة رغبة متواصلة الحضور بين أفراد الأقليات، تتجسد في عمل الفرد لأن يكون الورقة الرابحة في كل صنعة أو حرفة، وهذه ليست بمثلبة قط.



بيانات عامة مفيدة

- **أهل الحق:**

- أسماؤهم الأخرى: "علوي" (في تركيا) و"قزلباش" (في إيران) و"يارسان" (في كردستان) و"كاكائي" (في العراق).

- عدد أتباع دينهم: حوالي مليون نسمة (على المستوى العالمي) أغلبهم من الكرد.

- **المندائيون:**

- أسماؤهم الأخرى: "الصبّة" (في العراق وإيران).

- عدد أتباع دينهم: بين ٦٠٠٠٠ و ٧٠٠٠٠ نسمة تخمينًا (على مستوى العالم).

- موطنهم الأصل: جنوبي حوض الرافدين. أدَّى العنف الطائفي في العراق خلال السنوات الأخيرة إلى هجرة أعداد كبيرة منهم إلى ملاجئ آمنة في دول أوربا وأميركا الشمالية وأستراليا، من بين دول أخرى.

- **اليزيديون:**

- أسماؤهم الأخرى: الإيزيديون (في كردستان).

- عددهم: حوالي ٧٠٠٠٠٠ نسمة (تخمينًا وعلى مستوى العالم).

- موطنهم الأصل: نواحي محافظة نينوى، شمال العراق، ويوجد منهم جماعات في سوريا وتركيا وأرمينيا، إضافة إلى استقرار البعض منهم في أوربا واستراليا وأميركا الشمالية بعد مغادرتهم العراق مؤخرًا من أجل تجنب العنف الطائفي.

• **ملاحظة: البيانات أعلاه منقولة عن موسوعة ويكيبيديا Wikipedia المجانية.**


الهوامش

(1) Eric Meyer, " 'I know Thee Not, I Loathe Thy race': Romantic Orientalism in the Eye of the Other", ***ELH***, 58 (1991), pp. 3-4.

(2) Muhammed AlDa'mi, ***Arabian Mirrors and Western Soothsayers: Nineteenth-Century Literary Approaches to Arab-Islamic History*** (NY: Peter Lang Publishing, 2002), p. 178.

(3) ***Ibid.***, p. 20.

(4) ***Ibid.***, pp. 19-20.

(5) R. W. Southern, ***Western Views of Islam in the Middle Ages*** (Cambridge: Harvard University Press, 1978), p. 108.

(6) Quoted in D. G. Hogarth, ***The Life of Charles Doughty*** (London: OUP, 1928), pp. 114-5.

(7) John Henry Newman, ***The Idea of a University*** (NY:Chelsea House, 1983)p.230

(8) Karen Armstrong, ***A History of God: The 4000-Year Quest of Judaism, Christianity and Islam*** (NY:Alfred A. Knopf, 1993) p.3.

(9) ***Ibid.***, p. 4.

(10) Al-Masaudi, ***History, Muruj al-Dhahab***, vol. I (in Arabic) (Bulaq: The Printing Press, 1866), pp. 30-100. See also ibid., p. 152.

(11) Armstrong, p. 137.

(12) Muhammed Al Da'mi, "The Intellectual Significance of Carlyle's and Irving's Commentaries on the Pre-Islamic Religions of Arabia", ***Medieval Encounters: Jewish, Christian and Muslim Cultures in Confluence and Dialogue***, vol. 3, no. 2 (July, 1997), 142-50.

(13) ***Ibid.***, pp. 142-6.

(14) Quoted in W. F. Tucker, ***Mahdis and Millenarians: Shi'ite Extremists in Early Muslim Iraq*** (Cambridge: Cambridge University Press, 2008), p. 133.

(15) For an elaborate idea on Middle-Eastern medievalism, consult: Al Da'mi, ***Caught in a Dream: Nine Paradoxes from Middle-Eastern Medievalism*** (Bloomington, IN: Authorhouse, 2013).

(16) Dorothee M. Finkelstien, ***Melville's Orienda*** (New Haven: Yale University Press, 1961), pp. 4-6.

(17) K. Kehl-Bodrogi, B. Kellner-Heinkele and A.

Otter-Beaujean, eds., ***Syncretistic Religious Communities in the Near East; Collected Papers of the Symposium, Berlin, 1995*** (Leiden: Brill, 1997), p. viii.

▪ الفصل الثاني

(1) www.ahl-e Haqq/int.html.Retrieved on June 3, 2013.

(2) Thomas Carlyle, ***Sartor Resartus, and On Heroes, Hero-Worship, and the Heroic in History*** (NY: Dutton, 1973), p. 54

(3) www. ahl-e Haqq/int.html, ***op.cit.***

(4) Kehl-Bodrogi, B. Kellner-Heinkele and A. Otter-Beaujean, eds., ***Syncretistic Religious Communities in the Near East; Collected Papers of the Symposium, Berlin, 1995*** (Leiden: Brill, 1997), p. xvi.

(5) en.wikipedia.or/wiki/Ahl-e Haqq, Retrieved on March 5, 2013.

(6) ***Ibid.***

(7) For more on such ancient spiritual doctrines which are attached to Muslim Shi'i extremist

groups, consult: Moojan Momen, ***An Introduction to Shi'i Islam: The History and Doctrines of Twelver Shi'ism*** (New Haven: Yale University Press, 1989), pp. 45-9.

(8) William F. Tucker, ***Mahdis and Millenarians: Shi'ite Extremists in Early Muslim Iraq*** (Cambridge: The Cambridge University Press, 2008), pp. 1-8.

(9) en.wikipedia.org/wiki/Ahl-e Haqq, ***op cit.***

(10) ***Ibid.***

▪ الفصل الثالث

(1) E. S. Drower, ***The Mandaeans of Iraq and Iran*** (Oxford: O.U.P., 1937), p. xx.

(2) For the concept of 'Mesopotamianism' and the 'Mesopotamianists', consult: Muhammed Al Da'mi ***Caught in a Dream: Nine Paradoxes from Middle-Eastern Medievalism*** (Bloomington, IN: Authorhouse, 2013), pp. 147-160.

(3) Drower, p.xix.

(4) Moojan Momen, ***An Introduction to Shi'i***

Islam: The History and Doctriens of Twelver Shi'ism (New Haven: Yale University Press, 1985), p. 65.

(5) William F. Tucker, ***Mahdis and Millenarians: Shi'ite Extremists in Early Muslim Iraq*** (NY: Cambridge University Press, 2008), back cover.

(6) Drower, p. xix.

(7) ***Ibid.***, p, xix.

(8) It is significant to note that the Arabic stem of the verb 'to pour' is ***sabba***.

(9) en.wikipedia/wiki/Mandaeism. Retrieved on Feb. 11, 2013.

(10) ***Ibid.***

(11) ***Ibid.***

(12) ***Ibid.***

(13) ***Ibid.***

(14) Tucker, p. 133.

(15) Muhammed Al Da'mi, ***The Other Islam; Shi'ism: From Idol-Breaking to Apocalyptic Mahdism*** (Bloomington, IN.: authorhouse, 2012), pp.123-8.

(16) Drower, pp. 91-2.

(17) en.wikipedia/wiki/Mandaeism, ***op.cit.***

(18) ***Ibid.***

(19) ***Ibid.***

(20) Drower, pp. 74-5.

(21) en.wikipedia/wiki/Mandaeism***, op.cit.***

(22) ***Ibid.***

(23) Ahmed Susa, an originally Jewish convert to Islam, he wrote a series of important books in Arabic and English, with a particular reference to demonstrating this aspect of Mesopotamian history. His works include ***Irrigation in Iraq (1945), Guid to the Irrigation of Iraq (1944), The Euphrates Valley (1944-5)***, apart from seven other books including the excellent ***History of the Arabs and the Jews***.

(24) Drower, pp. xxi-xxiv.

(25) en.wikipedia/wiki/Mandaeism. ***op.cit.***

(26) ***Ibid.***

(27) ***Ibid.***

(28) Drower, p. xviii.

(29) Hamid Dabashi, ***Shi'ism: A Religion of Protest*** (Cambridge, Mass.: The Belknap Press of Harvard Univ. Press, 2011), pp. 10-4.

(30) Drower, p. 90.

(31) This piece of information is obtained from a knowledgeable Mandaean friend.

(32) en.wikipedia/wiki/Mandaeism, ***op.cit.***

(33) Lady Drower reports of a fourteenth-century slaughter afflicted on the Mandaeans by their Arab-Muslim neighbors, Drower, p. 16.

▪ الفصل الرابع

(1) See: en.wikipedia.org/wiki/Yazidi. Retrieved on Feb. 9, 2012.

(2) ***Ibid.***

(3) Quoted in William Tucker, ***Mahdis and Millenarians: Shi'ite Extremists in Early Muslim Iraq*** (NY: Cambridge University Press, 2008), p. 133.

(4) E. S. Drower, ***The Peacock Angel; Being Some Accounts of Votaries of a Secret Cult and Their***

Sanctuaries (London: John Murray, 1941), p. 7.

(5) See: Abdul Razzaq al-Hasani, ***The Yezidis: Present and Past*** (in Arabic) (Baghdad: The Arab Office, 1984), pp. 9-13.

(6) See: en.wikipedia.org/wiki/Yazidi: retrieved on February 9, 2013.

(7) Drower, the title page.

(8) ***Encyclopedia Americana: The International Reference Work,*** vol. 26 (NY: American Corporation, 1960), p. 184.

(9) Wikipedia.org/wiki/Yazidi. ***op.cit.***

(10) Drower, pp. 6-7.

(11) Drower, p. 6.

(12) Wikipedia.org/wiki/Yazidi. ***op.cit.***

(13) ‘***araq*** is a local, home-made alcoholic beverage.

(14) Drower, p. 7.

(15) en.wikipedia.org/wiki/Yazidi. ***op.cit.***

(16) Drower, p. 7.

(17) Quoted in: www.religious-information.com/ Yazidi-religion. Retrieved on Feb. 13, 2013.

(18) Drower, p. 164.

(19) To be discussed in a following chapter.

▪ الفصل الخامس

(1) Karen Armstrong, ***A History of God: The 4000-year Quest of Judaism, Christianity and Islam*** (N Y: Alfred A. Knoff, 1993), p. 3.

(2) Thomas Carlyle, ***On Heroes, Hero-Worship, and the Heroic in History*** (London: Collin's Clear-Type Press, ND), p. 66.

(3) Consult Maud Bodkin, ***Archetypal Patterns in Poetry: Psychological Studies of Imagination*** (London: OUP, 1963).

(4) Armstrong, pp. 150.

(5) Quoted in: en.wikipedia/wiki/Mandaeism. Retrieved on Monday Feb. 11, 2013. ***Op.cit.***


مصادر الكتاب

▪ المصادر الإنكليزية

Al Da'mi, Muhammed. "The Intellectual Significance of Carlyle's and Irving's Commentaries on Pre-Islamic Religions of Arabia", ***Medieval Encounters :Jewish, Christian and Muslim Cultures in Confluence and Dialogue***, vol.3, no .(2 July, 1997), 142-50.

.________________***The Other Islam; Shi'ism:From Idol-Breaking to Apocalyptic Mahdism***.Bloomington, IN.: Authorhouse, 2012.

.________________***Caught in a Dream: Nine Paradoxes from Middle-Eastern Medievalism***. Bloomington, IN.: Authorhouse, 2013.

.________________***Arabian Mirrors and Western Soothsayers: Nineteenth -Century Approaches to Arab-Islamic History***. NY: Peter Lang Publishing, 2002.

Armstrong, Karen. ***A History of God: The 4000-Year Quest of Judaism , Christianity and Islam***. NY: Alfred A. Knoff, 1993.

Barnes, Ian. ***World Religions***. London: Cartographica, 2007 .

Bodkin, Maud. ***Archetypal Patterns in Poetry: Psychological Studies of Imagination***. London: OUP, 1963.

Bowker, John. ***The Religious Imagination and the Sense of God***. Oxford :OUP, 1978.

Campbell, Joseph. ***The Power of Myth***. NY: Penguin Group, 1949.

Curmont, Franz. ***Oriental Religions in Roman Paganism***. NY: Dover Publications, 1956.

Dabashi, Hamid. ***Shi'ism: A Religion of Protest***. Cambridge: The Belknap Press of Harvard Univ. Press, 2011.

Davis James C. ***The Human Story: Our History, From the Stone Age to Today*** .NY: Harper Collins Publishers, 2004.

Drower, E. S. ***The Mandaeans of Iraq and Iran***. Oxford: OUP, 1937.

.________***The Peacock Angel; Being Some Accounts of Votaries of a Secret Cult and Their Sanctuaries***. London: John Murray, 1941.

.________***The Secret Adam: A Study of Nasoraen Gnosis***. London: Clarendon Press, 1960.

Edmonds, Cecil. ***Kurds, Turks and Arabs; Travel and Research in North-Eastern Iraq, 1919-1925***. Oxford: OUP, 1957.

Encyclopedia Americana; The International Reference Work. Vol. 26. NY :American Corporation, 1960, 184.

Encyclopedia of the Modern Middle East and North Africa. Detroit: Thomason, Gale, 2004 .

Feiler, Bruce. ***Where God was Born: A Journey by Land to the Roots of Religion*** .NY: William Morrow, 2005.

Finkelstein, D. M. ***Melville's Orienda***. New Haven: Yale University Press, 1961.

Hosseini, Z. "Inner Truth and Outer History. The Two Worlds of Ahl-e Haqq of Kurdistan", ***International Journal of Middle East Studies***, vol. 26 (1994), 267-269.

Izady, Mehrdad. ***The Kurds: A Concise Handbook***. London: Taylor & Francis, 1992.

James, William. ***The Varieties of Religious Experience***. Harmondsworth: Dover, Publications, 1982.

Katz, Steven T., ed. ***Mysticism and Religious Traditions***. Oxford: OUP, 1983.

Kreyenbroek, P. G. "The Yarsan: A Sociological, Historical and Religio-Historical, Study of a Kurdish Community", ***Bulletin of the School of Oriental and African Studies***, vol. 55, no. 3 (1992), 565-566 .

Kehl-Bodrogi, K., et al, eds. ***Syncretistic Religious Communities in the Near East, Collected Papers of the Symposium, Berlin, 1995***. Leiden: Brill, 1997.

Louth, Anderew. ***Discerning the Mystery: An Essay on the Nature of Theology***. Oxford: O.U.P., 1983.

Macquarri, John. ***Thinking About God***. London: Harper Collins Publishers, 1975.

Momen, Moojan. ***An Introduction to Shi'i Islam: The History and Doctrines of Twelver Shi'ism***. New Haven: Yale Univ. Press, 1985.

Newman, John Henry. ***The Idea of a University***. NY: Chelsea House, 1983.

Otto, Rudolf. ***The Idea of the Holy: An Inquiry into the Non-Rational Factor in the Idea of the Divine and Its Relation to the Rational***. J. W. Harvey, trans .Oxford: Hard Press Editions, 1923.

Schwab, Raymond. ***The Oriental Renaissance: Europe's Rediscovery of India And the East, 1680-1880***. NY: Columbia Univ. Press, 1984.

Simon, Weightman. "The Significance of Kitab Burhan al-Haqq, ***The Journal of the British Institute of Persian Studies***, 2 (1964), 20-4.

Stewart, Rory. ***The Prince of the Marshes; And Other Occupational Hazards of a Year in Iraq***. NY: Harvest Book Harcourt INC: 2006.

Tucker, W. F. ***Mahdis Millenarians: Shi'ite Extremists in Early Muslim Iraq***. Cambridge: The Cambridge University Press, 2008.

Ward, Keith. ***The Concept of God***. Oxford: St. Martin's Press, 1974.

Woods, Richard, ed. ***Understanding Mysticism***. NY: Continuum International, Publishing Group, 1980.

▪ Websites

- www.ahl-e Haqq/int.html. (June 3, 2013).
- en.wikipedia.org/wiki/ahl-e Haqq (March 5, 2013).
- en.wikipedia.org/wiki/Mandaeism (Feb.11, 2013).
- en.wikipedia.org/wiki/Yazidi (Feb. 9, 2012).
- www.religious-information.com/Yazidi-religion (Feb. 13, 2013).

▪المصادر العربية

- أحمد، خالد ويحيى. (الصابئة المندائيون ومعتقداتهم). القاهرة: دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.
- تيمور، أحمد. (اليزيدية وأصل عبادتهم). القاهرة: المطبوعات السلفية، ١٩٢٧.
- الحسني، توفيق. (الأيزيديون- نشأتهم- عقائدهم- كتابهم المقدس). المدينة المنورة: دار الزمان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨.
- الحسني، عبد الرزاق. (اليزيديون في حاضرهم وماضيهم). بغداد: المكتب العربي لتوزيع المطبوعات، ١٩٨٤.

- ـــــــــــــــــــ. (الصابئة: قديمًا وحديثًا). بغداد: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٣١.
- ـــــــــــــــــــ. (الصابئون في حاضرهم وماضيهم). صيدا: مطبعة عرفان، ١٩٦٣.
- حمادة، محمد عكر. (تاريخ الصابئة المندائيين). بغداد: دار الكتب والوثائق، ١٩٩٨.
- الدعمي، محمد. (الاستشراق: الإستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦.
- ـــــــــــــــــــ. (الإسلام الآخر؛ التشيع: من تحطيم الأصنام إلى الرؤيوية المهدوية). بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠١٤.
- الدملوجي، صدّيق. (اليزيدية). الموصل: مطبعة الإتحاد، ١٩٩٨.
- الديوه جي، سعيد. (دراسات أديان: اليزيدية). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣.
- سليمان/ عبد ربه سليمان بن محمد. (فيض الوهاب في بيان أهل الحق ومن ضلَّ عن الصواب)، الجزء الرابع. القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٤.

- سوني، ضو محمد. (الإشارة إلى مذهب أهل الحق لإبي إسحاق الشيرازي). القاهرة: كلية أصول الدين، ١٩٧٨.
- شوكت، أحمد. (الشبك: الكرد المنسيون: دراسة تاريخية-اجتماعية في اصولهم ولغتهم وموطنهم). أربيل: وزارة الثقافة، ٢٠٠٤.
- صدّيقي، محمد الناصر. (تاريخ اليزيدية: النشأة، الفكر، المعتقدات والطقوس). اللاذقية: دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨
- عبود، زهير كاظم. (الإيزيدية: حقائق وخفايا واساطير). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥.
- ــــــــــــــ. (الشبك في العراق). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩.
- مطر، سليم. (الذات الجريحة: إشكالات الهوية في العراق والعالم العربي). بيروت: المؤسسة العربية للدرسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠.
- ــــــــــــــ. (جدل الهوية). بيروت: المؤسسة العربية للدرسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢.
- المعيقل، بدر محمد طرار. (اليزيدية). الرياض: مطبعة جامعة الملك سعود- كلية التربية. ١٩٩٦.



المؤلف في سطور

- أ.د. محمد الدعمي.
- من مواليد بغداد، عام ١٩٥٥م.
- عمل أستاذًا وباحثًا في المؤسسات الأكاديمية العراقية والعربية والأميركية لأكثر من ٢٧ عامًا، تسنم خلالها مناصب إدارية تراوحت بين عميد كلية ورئيس قسم ورئيس لجان علمية.
- حضر وحاضر في عدد كبير من المؤتمرات والندوات العلمية.
- يسهم في وسائل الإعلام العربي على نحو إسبوعي متواصل منذ ما لا يقل عن ثلاثين عامًا، زيادة على المقابلات العديدة مع الفضائيات العراقية والعربية والعالمية.
- إسهاماته البحثية تجاوزت ستة كتب بالعربية وخمسة كتب بالإنكليزية، إضافة إلى عشرات الأبحاث المنشورة في مجلات علمية معتمدة باللغتين العربية والإنكليزية.
- عضو في العديد من الجمعيات والإتحادات العلمية والثقافية المتخصصة، منها عمله مستشارًا في بيت الحكمة - بغداد.
- عضو في العديد من الهيئات الإستشارية للمجلات العلمية المتخصصة.

- البريد الإلكتروني : maldaami55@gmail.com

▪ من كتبه المهمة:

• باللغة العربية:

١. *انتصار الزمن : دراسة في أساليب معالجة الماضي في الفكر الإحيائي*. بغداد: دار الشؤون الثقافية،١٩٨٥.

٢. *المتغير الغربي: الشرق، الاستشراق، أدب الصحراء*. بغداد: دار الشؤون الثقافية ،١٩٨٦.

٣. *صورة المرأة المباركة: دراسة في قصائد تشيللي وتنيسون وروزتي وقباني*. بغداد: دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٩.

٤. *الإسلام والعولمة: الإستجابة العربية-الإسلامية لمعطيات العولمة*. أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ٢٠٠٣.

٥. *الاستشراق: الاستجابة الثقافية الغربية للتاريخ العربي الإسلامي*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،٢٠٠٦.

٦. *الإسلام الآخر، التشيع: من تحطيم الأصنام إلى الرؤيوية المهدوية*. بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠١٣.

٧. *المغمور من أديان الشرق الأوسط :* شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٤م.

• باللغة الإنكليزية

1. ***Arabian Mirrors and Western Soothsayers,*** **New York: Peter Lang , 2002**.
2. ***The Other Islam; Shi'ism: From Idol-Breaking to Apocalyptic,*** **Revised edition. Bloomington, IN: Authorhouse, 2012**.
3. ***Caught in a Dream: Nine Paradoxes from Middle-Eastern Medievalism.*** **Bloomington, IN : Authorhouse, 2012**.
4. ***Knights of the Industrial Revolution: Art and Social Change in the Medievalist Imagination of Carlyle, Ruskin, Morris and Other Victorian Thinkers.*** **Parker, CO: Outskirts Press, 2013**.
5. ***Feminizing the West: Neo-Islam's Concepts of Renewal, War and the State.*** **Bloomington, IN.: Authorhouse, 2014**.



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27270004

www.shams-group.net